دار التقريب بين المذاهب الإسلامية

الموسوعة القرآنية

خصائص السور

المجلد التاسع

إعداد
جعفر شرف الدين

تقديم
د. عبد العزيز بن عثمان التويجري

الموسوعة القرآنية
خصائص السُّوَر

دار التقريب بين المذاهب الإسلامية

الموسوعة القرآنية

خصائص السور

المجلد التاسع

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net < رابط بديل

إعداد

جعفر شرف الدين

تقديم

د. عبد العزيز بن عثمان التويجري

مراجعة

الأستاذ أحمد حاطوم

د. محمد توفيق أبو علي

دار التقريب
بين المذاهب الإسلامية

شارع جان دارك ـ بناية الوهاد
ص.ب ٨٣٧٥ ـ بيروت ـ لبنان
تلفون ٢/ ٣٥٠٧٢١ (٠١)
تلفون + فاكس: ٦٠٢٠٢٩ ـ ٣٥٣٠٠٠ (٩٦١١)
e-mail: allprints@netgate.com.lb

الطبعة الأولى
١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م

الإخراج الفني: زاهية عاصي

سورة الذّاريَات

٥١

أهداف سورة «الذاريات»(*)

سورة مكية وآياتها ستون آية، نزلت بعد سورة الأحقاف.

معاني السورة

بدأت السورة بهذا القسم:

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (1) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (2) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (3) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (4) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (5) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (6)﴾.

وهي كلمات غير مطروقة وغير متداولة، وقد سئل الإمام علي كرّم الله وجهه، عن معنى قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (1)﴾ فقال رضي الله عنه: هي الريح، فسئل عن ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (2)﴾ فقال: هي السحاب، فسئل عن ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (3)﴾ فقال: هي السفن، فسئل عن ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (4)﴾ فقال: هي الملائكة.

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (1)﴾ هي الريح التي تذرو التراب وغيره، ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (2)﴾ أي السُّحُب الحاملة للمطر، والوِقْر الحِمْل الثقيل، ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (3)﴾ أي السفن الجارية في البحر جرياً سهلاً، ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (4)﴾ أي الملائكة التي تُقَسِّم وتوزع أمور الله من الامطار والارزاق وغيرها.

لقد أقسم الله، جلّ جلاله، بالريح وبالسحب وبالسفن وبالملائكة، وفي هذا القسم ما يوحي بأن الرزق بيد الله، فهو الذي يسوق السحاب، وهو الذي يُسَخِّر الريح للسفن، وهو الذي جعل الملائكة أصنافاً تقسم الأمور، فالخلق

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

البديع المنظم وراءه قوة عليا مبدعة، هي قوّته سبحانه الذي وعد الناس أن يجازيهم بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً، وَوَعْدُه واقع لا محالة.

﴿وَالسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ۝٧﴾ الـحُـبُـك بضمتين جمع حبيكة وهي الطريق ومدار الكواكب. والمراد الطرائق التي هي مسير الأجرام السماوية من نجوم وكواكِب، يُقْسِم الله عزّ وعلا بالسماء المتّسقة المُحْكمة الترتيب، بما فيها من نجوم وكواكب تسلك طريقها مسرعة في مَجَرّاتها العظيمة بنظام دقيق وإبداع شامل، على أن المشركين يخوضون في حديثٍ باطلٍ وقولٍ متناقضٍ مضطرب، فَصُنْع الله محكم، وعَمَلُ الكافرين باطل مضطرب، فتراهم حيناً يقولون عن النبي (ص) إنّه شاعر، وتارة يقولون: ساحر، ومرة ثالثة يقولون: مجنون. وهذا دليل على التخبط وفساد الرأي.

وقد رسمت السورة صورة الكافرين يذوقون عذاب جهنم ويقال لهم: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ۝١٤﴾.

أي تَعَرَضُوا لعذاب النار وقد كنتم تستعجلون مجيئه، استهزاءً بأمره واستبعاداً لوقوعه.

وعلى الضفّة الاخرى، وفي الصفحة المقابلة، يرتسم مشهد آخر لفريق آخر، فريقٍ مستيقن بالآخرة، مستيقظٍ للعمل الصالح، فريق المتقين الذين أدّوا حقوق الله سبحانه بالصلاة وقيام الليل، وأدّوا حقوق الناس بالزكاة والصدقة.

آيات الله في الأرض والسماء

تشير الآية ٢٠ الى آثار قدرة الله في خلق الأرض، فيقول سبحانه: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ۝٢٠﴾. واذا تأملنا مضمون هذه الآية، وجدنا أنّ هذا الكوكب الذي نعيش عليه مَعْرِضٌ هائلٌ لآيات الله وعجائب صنعته، هذه الأرض تكاد تنفرد باستعدادها لاستقبال هذا النوع من الحياة وحضانته، ولو اختلّت خصيصة واحدة من خصائص الأرض الكبيرة جداً لتعذر وجود هذا النوع من الحياة عليها. ولو تغيّر حجمها صِغَراً أو كِبَراً، لو تغيّر وضعها من الشمس قُرْباً أو بُعْداً، لو تغيّر حجم الشمس ودرجة حرارتها، لو تغير ميل الأرض على محورها هنا أو هنا، لو

تغيّرت حركتها حول نفسها أو حول الشمس سُرْعةً أو بُطْئاً، لو تغيّر حجم القمر أو بعده عنها، لو تغيّرت نسبة الماء الى اليابس فيها زيادة أو نقصاً... لو... لو... لو، الى آلاف الموافقات العجيبة المعروفة والمجهولة التي تتحكم في صلاحيتها لاستقبال هذا النوع من الحياة وحضانته، أليست هذه آية، أو آيات معروضة في هذا المعرض الالهي؟

«وتنوع مشاهد هذه الأرض ومناظرها، حيثما امتدّ الطرف، وحيثما تنقلت القَدَم، وعجائب هذه المشاهد التي لا تنفد: من وادٍ وجبلٍ، ووِهادٍ وبِطاحٍ، وبحار وبحيرات، وأنهار وغُدرانٍ، وقِطَعٍ متجاورات، وجنّاتٍ وأعنابٍ، وزرعٍ ونخيلٍ صِنْوانٍ وغيرِ صِنْوانٍ... وكل مشهد من هذه المشاهد تتناوله يد الإبداع والتغيير الدائبة التي لا تفتر عن الابداع والتغيير».

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

خلق الله الانسان، ونفخ فيه من روحه، وشق له السمع والبصر وزوّده بالحواس المتعددة، ووسائل الادراك المختلفة.

«وحيثما وقف الانسان يتأمّل عجائب نفسه، التقى أسراراً تدهش وتحيّر: تكوين أعضائه وتوزيعها، وظائفها وطريقة أدائها لهذه الوظائف، عملية الهضم والامتصاص، عملية التنفّس والاحتراق، دورة الدم في القلب والعروق، الجهاز العصبي وتركيبه وإدارته للجسم، الغدد وإفرازها وعلاقتها بنمو الجسد وانتظامه، تناسق هذه الأجهزة كلّها وتعاونها وتجاوبها الكامل الدقيق، وكل من هذه تنطوي تحتها عجائب وفي كل عضو وكل جزء من عضو خارقة تحيّر الألباب».

﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

فَبِيَدِ الله الخلق والرزق والهدى والضلال، وأرزاق السماء تشمل الارزاق المادية والمعنوية.

وفي السماء أسباب أقواتكم، فالظواهر الفلكية، وجريان الشموس والكواكب وتوابعها، واختلاف الليل والنهار، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبَثَّ فيها من كل دابة، وتصريف الرياح، والسحاب المسخّر بين السماء والأرض، كل هذه الظواهر ذلّلها الله لخدمة الانسان، فليس الرزق موقوفاً

على شيء يتعلق بالأرض وحدها، بل الأمر كله لله تعالى، يقبض ويبسط وإليه المآب.

ثم يعقب الله سبحانه بالقسم: بحق رب الأرض والسماء إن هذا الأمر لحق مثل نطقكم، فهل تشكّون في أنكم تنطقون؟

قصة ابراهيم

يشتمل القطاع الثاني من سورة «الذاريات» على الإشارة الى قصص إبراهيم ولوط وموسى (ع)، وعاد قوم هود (ع)، وثمود قوم صالح (ع)، ثم آية عن قوم نوح (ع). وهذا القصص مرتبط بما قبله، ومرتبط بما بعده في سياق السورة.

وإبراهيم (ع) أبو البشر اتخذه الله سبحانه، خليلاً، وأرسل اليه ملائكة مكرّمين، فأكرم الخليل وفادتهم، وقرّب لهم عِجلاً سميناً، ودعاهم للأكل منه، ولكنهم أمسكوا عن الطعام، فخاف منهم إبراهيم. فلما أحسُّوا خوفه أخبروه بأنهم ملائكة من السماء أرسلهم الله إليه، ثم بشروه بغلام حليم.

وأقبلت زوجته، وقد استولى عليها هول المفاجأة، فضربت وجهها بأطراف أصابعها، وصاحت متعجّبة من الحمل، وَهي عجوز عقيم، فأخبرتها الملائكة بأنه لا وجه للعجب، كذلك أمر الله، وهو الحكيم في أعماله العليم بعباده.

قصة لوط

واتّجهت الملائكة بعد ذلك الى لوط (ع)، فلما رآهم لوط أنكرهم وضاق بهم ذَرْعاً، فقالت له الملائكة: يا لوط إنا رُسُل ربّك، جئنا لإنقاذك ومَنْ معك من المؤمنين، فَأَسْرِ بأهلك في ظلام الليل، ولا يلتفت منكم أحدٌ إلاّ امرأتك، فقد حقت عليها كلمة العذاب مثل هؤلاء الظالمين.

ولم تجد الملائكة في قرى قوم لوط غير أهل بيت واحد من المسلمين: هو لوط وابنتاه.

ولما خرج لوط وابنتاه، جعل الله ديارهم عاليها سافلها، وساق إليهم عاصفة رعدية أمطرتهم بحجارة مسمومة، استأصلت شَأْفَتَهُمْ وتركتهم أثراً بعد عين، وجعلهم الله عظة وعبرة للمعتبرين.

إشارات الى قصص الأنبياء

أشـــارت الآيـــات [٣٨ ـ ٤٦] الـــى العبرة والعظة من قصة موسى (ع)، ومن قِصَص غيره من الأنبياء في لمحة عاجلة.

لقد أرسل الله موسى ومعه سلطان الهيبة وجلال النبوة، الى فرعون ومَلَئِه، فأعرض فرعون عن موسى واتهمه بالسحر والجنون، فأغرق الله فرعون وجنده في البحر وألبسه ثوب الخِزْي والندم.

وآية أخرى في عاد قوم نبي الله هود (ع)، حينما كذبوا نبيهم فأرسل الله، جلّ جلاله، عليهم ريحاً عاتية تحمل العذاب والدمار.

وآية ثالثة في ثمود أمهلهم الله ثلاثة أيام، ثم أرسل عليهم صاعقة فأصبحوا هالكين.

والحجارة التي أرسلت على قوم لوط (ع)، والريح التي ارسلت على عاد، والصاعقة التي أرسلت على ثمود، كلها قوى كونية مدبرة بأمر الله سبحانه، مسخّرة بمشيئته ونواميسه، يسلطها على من يشاء في إطار تلك النواميس فتؤدّي دورها الذي يكلّفها الله، كأيّ جندٍ من جند الله.

آية رابعة في قوم نوح (ع)، فقد أُهلكوا وأُغرقوا لفسوقهم وكفرهم وخروجهم عن طاعة الله عزّ وعلا.

وللتنبيه الى بدائع صنعه إيقاظاً للعاطفة الدينية، عاد السياق فذكر أنّ الله تعالى رفع السماء ووسّعها، وخلق الأرض ومهّدها، وأعدّها لما عليها من الكائنات ومن كل شيء في هذه الأرض، ذَكَراً وأنثى ليكون ذلك وسيلة للعظة والاعتبار.

ثم يحث القرآن الناس على أن يتخلّصوا من آثار المادّة والهوى والشيطان، فِراراً بدينهم، وطمعاً في رحمة خالقهم، وأن يلجأوا الى حماه وفضله: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠﴾.

وتكشف الآيات عن طبيعة المعاندين في جميع العصور، فقد كذّبوا الرسل واتهموهم بالجنون أو السحر، كأنّما وصى السابق منهم اللاحق، وكأن الكفر في طبيعته ملّة واحدة، والرسالات كلها فكرة واحدة، فمن كذّب برسول واحد فكأنّما كذّب برسل الله أجمعين.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ

إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣)﴾.

هذه السورة تربط القلب البشري بالله، سبحانه، وترشده الى عظيم صنعه، وفي ختام السورة يؤكد الله، جلّ جلاله هذا المعنى فيبيّن أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعرفوه ويوحّدوه ويؤمنوا به، فهو سبحانه وتعالى غَنِيٌّ بذاته، وهم في حاجة وافتقار اليه.

إن معنى العبادة هو الخلافة في الأرض، وهو غاية الوجود الإنساني، وهو أوسع من مجرد الشعائر وأشمل. وتتمثل حقيقة العبادة في أمرين رئيسّين:

الأول: هو استقرار معنى العبودية لله تعالى في النفس، أي استقرار الشعور بأنه ليس في هذا الوجود إلا عابد ومعبود، إلا رب واحد والكل له عبيد.

والثاني: هو التوجه الى الله عزّ وجلّ، بكل حركة في الضمير، وكل حركة في الجوارح، وكل حركة في الحياة.

بهذا وذلك يتحقّق معنى العبادة، ويصبح العمل كالشعائر والشعائر كعمارة الأرض، وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله؛ كلها عبادة؛ وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التي خلق الله الجن والإنس لها، وكلها خضوع للناموس العام الذي يتمثل في عبودية كل شيء لله دون سواه.

والمؤمن الحق هو الحريص على أداء واجباته ومرضاة ربه، وهو لا يَعْني نفسه بأداء الواجبات تحقيقاً لمعنى العبادة في الأداء، أما الغايات فموكولة لله يأتي بها وفي قدره الذي يريده.

إن الله تعالى لم يخلق الجن والإنس ليستعين بهم، لجلب منفعة لذاته أو دفع مضرة، وما يريد الله منهم أن يرزقوا أحداً من خلقه أو يطعموه. إنّ الله سبحانه وتعالى هو الكفيل برزقهم، والمتفضّل عليهم بما يقوم بمعيشتهم، وهو سبحانه ذو القدرة والقوة، وهو الغالب على أمره فلا يعجزه شيء.

وفي ضوء هذه الحقيقة ينذر الذين ظلموا، فلم يؤمنوا بأن لهم نصيباً من العذاب مثل نصيب مَنْ سبقهم من الظالمين، فالله يمهل ولا يهمل، وتختتم السورة بهذا الإنذار الاخير: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ

﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

المعنى الاجمالي للسورة

قال الفيروزآبادي: «معظم مقصود سورة الذاريات ما يأتي: «القَسَم بأن البعث والقيامة حق، والإشارة إلى عذاب أهل الضلالة، وثواب أرباب الهداية، وحجّة الوحدانية، وكرامة إبراهيم في باب الضيافة، وهلاك قوم لوط وفرعون وقومه لمخالفتهم أمر الله، وتدمير عاد وثمود وقوم نوح وخسرانهم، وخلق السموات والأرض للنفع والإفادة، وزوجية المخلوقات للدلالة على قدرة الخالق، وتخليق الخلق لأجل العبادة واستحقاق المنكرين للعذاب والعقوبة».

ترابط الآيات في سورة «الذاريات»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة «الذاريات» بعد سورة «الأحقاف»، ونزلت سورة «الأحقاف» بعد الإسراء وقبيل الهجرة، فيكون نزول سورة «الذاريات» في ذلك التاريخ أيضاً. وقد سُمّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى في أولها: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١)﴾ وتبلغ آياتها ستين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة إنذار المشركين بعذاب الدنيا والآخرة، وقد أخذوا فيها بالدليل، ومرّة بالترهيب، كما أُخذوا بذلك في السورة السابقة، ولهذا جمع بينهما في الذكر، وجاء ترتيب هذه السورة بعد سابقتها.

إثبات الإنذار بالعذاب
الآيات [١ ـ ٦٠]

قال الله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥)﴾ فأقسم بهذا على أن ما يوعدون به من العذاب إن لم يؤمنوا به لَصادقٌ؛ ثم أقسم، جلَّ وعلا، بالسماء ذات الحُبُك على أن قولهم في إنكاره مختلف تُناقضه أفعالهم، لأنهم كانوا يربطون الركائب عند قبور الأكابر ليركبوها عند حشرهم، ثم أوعدهم على هذا بما أوعدهم به؛ ثم ذكرأنهم يسألون عن

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

يومه استعجالاً له واستهزاءً به، وأجاب بأنه يكون يوم يُفْتَنُون على النار ويقال لـهـم: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾. ثـم ذكـر مـا يـكـون للمتقين فيه من جنات وعيون، ليجمع بـهـذا بـيـن طـريـق الـتـرهـيـب وطـريـق الترغيب، ثم انتقل السّياق من هذا إلى الاستدلال بآياته، سبحانه، في الأرض وفي أنفسهم وفي السماء لإثبات قدرته على بعثهم وعذابهم، وختمه بالقَسَم كـمـا بـدأ بـه: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

ثم أخذ السياق بعد هذا في ذكر ما فعله الله جلّ جلاله بالمكذّبين قبلهم ترهيباً لهم بهم، فذكر من ذلك خبر قوم لوط بعد أن مهّد له بذكر أخبار الملائكة الذين أرسلوا بهلاكهم مع إبراهيم، ثم ذكر بعد ذلك خبر موسى وفرعون، وخبر عاد وما أهلكوا به من الريح العقيم، وخبر ثمود وما أخذوا به من الصاعقة، وخبر قوم نوح من قبلهم وهو معلوم.

ثم عاد السياق إلى إثبات قدرته عزّ وجلّ على ذلك، بالسماء التي بناها وأوْسَعَها، والأرض التي فرشها ومهّدها، إلى غير هذا من آثار قدرته، ثم أمرهم أن يفرُوا إليه سبحانه من عذابه، وألاّ يجعلوا معه آلهة أخرى لا تدفع عنهم منه شيئاً، ثم ذكر أنهم يسلكون في تكذيب ذلك طريق المكذّبين قبلهم، فيزعمون أن من ينذرهم به ساحر أو مجنون، وذكر السياق أمْرَ الله تعالى نبيّه (ص) أن يعرض عنهم لأنه لا لوم عليه بعد أن بلّغهم إنذارهم، وأن يكتفي بالتذكير لأن فيه الكفاية للمؤمنين، ثم ذكر تعالى أنه لم يخلق الجن والإنس عَبَثاً، وإنّما خلقهم لعبادته وتوحيده، وهو غنيٌ عنهم لا يحتاج الى شيء منهم، فإذا أشركوا به فإن لهم ذنوباً من العذاب مثل ذنوب من سبقهم من أولئك المكذبين: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

أسرار ترتيب سورة «الذاريات»(*)

أقول: لما ختمت «ق» بذكر البعث، واشتملت على ذكر الجزاء، والجنة والنار، وغير ذلك من أحوال القيامة، افتتحت هذه السورة بالإقسام على إنّ ما توعدون من ذلك لَصادِقٌ، وإن الدين، وهو الجزاء، لواقع.

ونظير ذلك: افتتاح «المرسلات» بذلك، بعد ذكر الوعد والوعيد والجزاء في سورة «الإنسان».

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

مكنونات سورة «الذاريات»(*)

١ - ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الآية ٢٤].

قال عثمان بنُ محصن: كانوا أربعة من الملائكة: جبريل، وميكائيل وإسرافيل، وروفائيل، أخرجه ابنُ أبي حاتم.

٢ - ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾.

قال مجُاهد: هو إسماعيل. أخرجه ابنُ أبي حاتم(١).

وقال الكَرِماني بعد حكايته: أجْمَعَ المُفَسِّرون على أنه إسحاق، إلا مجاهداً فإنه قال هو إسماعيل.

٣ - ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

قال مجاهد: لوط وابنتاه.

وقال قَتادة: وأهل بيته.

وقال سعيد بن جُبير: كانوا ثلاثة عَشَرَ.

أخرجه ابنُ أبي حاتم.

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِماتِ الأقران في مُبْهَمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) والطبري في «تفسيره» ٢٦/١٢٩.

لغة التنزيل في سورة «الذاريات»(*)

١ ـ قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠﴾.

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠﴾ دعاء عليهم كقوله جلّ وعلا: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧﴾ [عبس].

والخرّاصون: الكذّابون المقدِّرون ما لا يصحّ، وهم أصحاب القول المختلف.

أقول: وأصل الخَرْص الحَزْر، كخرص النخل، وهو تقدير ما عليه من حَمْل. ولما كان الخرص حزراً وتقديراً، فقد يتعرّضون إلى الكذب، إمّا عن قصد وإمّا عن غير قصد.

أقول: والخَرْص ممّا لا تعرفه الفصيحة المعاصرة، ولكننا نعرفه في الدارجة العراقية الجنوبية.

(*) انتهى هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

المعاني اللغوية في سورة «الذاريات»(*)

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧﴾ واحدها «الحِباك».

وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣﴾ أي: مَتَى يَوْمُ الدِّينِ. فقيل لهم: يومَ هُمْ على النار يُفْتَنون. لأن ذلك اليوم يوم طويل فيه الحساب، وفيه فتنتُهم على النار.

وقال تعالى: ﴿ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ﴾ [الآية ٥٩] أي سَجْلاً[1] من العذاب.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) السَّجْل: الدَّلو العظيمة.

لكل سؤال جواب في سورة «الذاريات»(*)

إن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥﴾ و«الصادق» وصف القائل لا وصف الوعد؟

قلنا: قيل «صادق» بمعنى «مصدوق» كقوله تعالى: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١﴾ [الحاقة] وقوله: ﴿مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾ [الطارق] وقيل معناه «لَصِدْق»، فإن المصدر قد جاء على وزن اسم الفاعل كقولهم: قمت قائماً، وقولهم: لحقت بهم اللائمة: أي اللوم.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥﴾ والمتقون لا يكونون في الجنة في العيون؟

قلنا: معناه أنهم في الجنات، والعيون الكثيرة محدقة بهم من كل ناحية، وهم في مجموعها لا في كل عين. ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤﴾ [القمر] لأنه بمعنى أنهار، إلا أنه ـ والله أعلم ـ عُدِلَ عنها رعاية للفواصل.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝٣٧﴾، أي في قرى قوم لوط (ع)، وقرى قوم لوط ليست موجودة، فكيف توجد فيها العلامة؟

قلنا: الضمير في قوله تعالى ﴿فِيهَا﴾ عائد إلى تلك الناحية والبقعة لا إلى مدائن قوم لوط. الثاني: عائد إليها، ولكن «في» بمعنى «مِنْ» كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ [النحل/ ٨٤]، وقوله تعالى: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ [النساء/ ٥]. ويؤيد هذا الوجه

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

مجيئه مصرحاً به في سورة العنكبوت بلفظ «مِنْ» في قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت] ثم قيل: الآية آثار منازلهم الخربة؛ وقيل هي الحجارة التي أبقاها الله تعالى حتى أدركها أوائل هذه الأمة. وقيل هي الماء الأسود الذي يخرج من الأرض.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الآيــة ٤٩]، أي صنفين، مع أن العرش والكرسي والقلم واللوح لم يخلق منها إلا واحد؟

قلنا قيل: معناه ومن كل حيوان خلقنا ذكراً أو أنثى. وقيل معناه: ومن كل شيء تشاهدونه خلقنا صنفين كالليل والنهار، والصيف والشتاء، والنور والظلمة، والخير والشر، والحياة والموت، والبحر والبر، والسماء والأرض، والشمس والقمر ونحو ذلك.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى هنا: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الآية ٥٠]، وقال سبحانه، في موضع آخر: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران/٢٨]؟

قلنا: معنى قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي الجأوا إليه بالتوبة، وقيل معناه: ففرّوا من عقوبته إلى رحمته؛ ومعنى قوله سبحانه: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي يخوفكم عذاب نفسه أو عقاب نفسه. وقال الزجّاج: معنى «نفسه» «إياه»، كأنه قال سبحانه وتعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام/٥٢] أي إياه، فظهر أنه لا تناقض بين الآيتين.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وإذا قلنا، خلقهم للعبادة كان مريداً لها منهم، فكيف أرادها منهم ولم توجد منهم؟

قلنا: فيه وجوه: أحدها أنه عام أريد به الخاص وهم المؤمنون، بدليل خروج البعض منه، بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف/ ١٧٩] ومن خُلِق لجهنم لا يكون مخلوقاً للعبادة. الثاني: أنه على عمومه، والمراد بالعبادة التوحيد، وقد وحّده الكل يوم أخذ الميثاق، وهذا الجواب يختص بالإنس، لأنّ أخذ الميثاق مخصوص بهم في الآية. وقيل معناه: إلاّ ليكونوا عبيداً لي. وقيل معناه: إلا لِيَذِلّوا ويخضعوا وينقادوا لما قضيته وقدّرته

عليهم، فلا يخرج عنه أحد منهم. وقيل معناه إلاّ ليعبدوني إن اختاروا العبادة لا قسراً وإلجاء. وقيل إلا ليعبدوني العبادة المرادة في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد/ ١٥] والعموم ثابت في الوجوه الخمسة.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ٥٧﴾ بعد قوله سبحانه: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾؟

قلنا: معناه ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ لأنفسهم، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ٥٧﴾: أي أن يطعموا عبيدي، وإنما أضاف الإطعام إلى ذاته المقدسة لأن الخلق عياله وعبيده، ومن أطعم عيال غيره فكأنه أطعمه، ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح «إن الله عز وجلّ يقول يوم القيامة: يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني» أي استطعمك عبدي فلم تطعمه.

المعاني المجازية في سورة «الذاريات»(*)

في قوله سبحانه في صفةِ حجارةِ القذفِ: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴿٣٤﴾﴾ استعارة. والمسوَّمة: المُعْلَمَةُ. وأصلُ ذلك مستعمل في تسويم الخيل للحرب. أي تعليمها بعلامات تتميّز بها من خيل العدو؛ شبِّهت هذه الحجارة بها لأنها مُعَلَّمةٌ بعلامات تدلُّ على مكروه المصابين، وَضَرَر المعَاقبين، كما كانت الخيل المسوَّمة تدل على ذلك في لقاء الأعداء. وإرسال هذه للعراك كإرسال تلك للهلاك.

وقيل: إن التسويم في تلك الحجارة هو أن تجعل نكتة سوداء في الحَجَر الأبيض، أو نكتة بيضاء في الحَجَر الأسود.

وقيل: كان عليها أمثال الطوابيع والخواتيم. وقد تكلمنا على نظير هذه الاستعارة في «هود».

والمراد بقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي خَلَقَها سبحانه كذلك من غير أن يفعلها فاعل، أو يجعلها جاعِلٌ. فلأجْلِ هذه الحال وَجَبَ أن يَجعل لها تعالى هذا الاختصاص بقوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾. وقد يجوز أيضاً أن يكون المراد بذلك أنها مسوَّمة في سلطان الله تعالى ومَلَكُوته. وفي موضعِ العقَابِ المُعَدِّ للمذنبين من خلْقه.

وفي قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴿٣٩﴾﴾.

وقد قيل: إن المُراد بها أنه أعرض بجنوده الذين هم كالركن له، والحجارة دونه. وقد يسمّى أعوانُ المرءِ وأنصارُه

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

أركـانـه واعـتـمـاده[1]، إذ كـان بـهـم يَصُولُ، وإليهم يؤول.

وقيل أيضاً معنى ذلك فتولّى[2] وسلطانه، فإن ذلك كالركن له والمانع منه. ونظيره قوله سبحانه حاكياً عَنْ لـوطٍ (ع): ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ (٨٠)﴾ [هـود]، أي إلى عزّ دافع، وسُلطان قامع.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ (٤١)﴾ استعارة. ومعنى العقيم هٰهنا التي لا تحمل القِطار، ولا تُلْقِح الأشجار، ولا تعود بخير، ولا تنكشف عن عواقب نفع. فهي كالمرأة التي لا يُرجَى وَلَدُها، ولا يَنْمى عَدَدُها.

---

(١) هكذا بالأصل. ولعلها «وأعماده».

(٢) بياض بالأصل.

سورة الطُّور

٥٢

أهداف سورة «الطور»(*)

سورة الطور سورة مكية وآياتها ٤٩ آية، نزلت بعد سورة السجدة.

القَسَم في صدر السورة

﴿وَالطُّورِ ۝١﴾: الجبل فيه شجر، والأرجح أنّ المقصود به هو الطور المعروف في القرآن، وهو الجبل الذي تَلَقّى موسى (ع) عنده كلام الله جلّ جلاله. قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ۚ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۝٥١ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ۝٥٢﴾ [مريم].

﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ۝٢﴾: الأقرب أن يكون كتاب موسى (ع) الذي كتب له في الألواح المناسبة بينه وبين الطور.

وقيل هو اللوح المحفوظ تمشّياً مع ما بعده، البيت المعمور والسقف المرفوع، ولا يمتنع أن يكون هذا هو المقصود.

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤﴾: قد يكون هو الكعبة فهي عامرة بالطواف حولها في جميع الأوقات.

وقيل هو بيت في السماء حِيال الكعبة يدخله كلّ يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه بل يدخل غيرهم في اليوم التالي.

وذلك يرمز الى كثرة الملائكة وهم خلق مُكَرّمون لا يَعْصُون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥﴾: هو السماء.

وقد نسب ذلك الى سفيان الثوري عن الإمام علي رضي الله عنه، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ۝٣٢﴾ [الأنبياء].

﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾: المملوء، وهو أنسب شيء يذكر مع السماء، في انفساحه وامتلائه وامتداده.

وقد يكون معنى المسجور: المتّقد، كما في قوله تعالى في سورة أخرى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ [التكوير] أي توقّدت نيراناً عند نهاية الحياة، وذلك يمهّد لجواب القسم، وهو: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾.

وقد سمع عمر رضي الله عنه هذه الآية ذات ليلة فتأثّر بها واشتدّ خوفه وعاد الى بيته مريضاً، ومكث شهراً يعوده الناس لا يدرون ما مرضه.

وعمر رضي الله عنه سمع السورة قبل ذلك وقرأها وصلى بها، فقد كان رسول الله (ص) يصلي بها المغرب، ولكنها في تلك الليلة صادفت من عمر قلباً مكشوفاً، وحسّاً مفتوحاً، فنفذت إليه.

﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾.

ومشهد السماء الثابتة المبنية بقوّة وهي تضطرب وتتقلّب كما يضطرب الموج في البحر من هنا إلى هناك بلا قِوامٍ، ومشهد الجبال الراسية الصلبة تسير خفيفة رقيقة لا ثباتَ لها ولا استقرارَ أمرٌ مذهلٌ مزلزلٌ، من شأنه أن يُذْهِل الإنسان.

وفي آيات أخرى ذكر القرآن أن السماء تنشقّ على غِلَظِها وتتعلق الملائكة بأطرافها، كما ذكر اضطراب الكون وسائر الموجودات يوم القيامة.

إن قلوب أهل مكة التي جحدت الآخرة، وأنكرت البعث والجزاء، تحتاج الى حملة عنيفة بقسم الله، جلّت قدرته، فيها بمقدّسات في الأرض والسماء بعضها مكشوف ومعلوم، وبعضها مُغَيَّب مجهول، على وقوع العذاب يوم القيامة وَسْط مشهد هائل ترتجّ له الأرض والسماء: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝٤٨﴾ [ابراهيم].

وفي وسط هذا المشهد المفزع نرى

ونسمع ما يُزَلْزِل ويُرْعِب من ويل وهول وتقريع وتفزيع.

إن المجرمين يساقون سَوْقاً إلى جهنّم وَيُدَفّعُونَ في ظهورهم دَفْعاً، حتى إذ أوصل بهم الدفع الى حافة النار قيل لهم هذه هي النار، فهل هي سحر كما زعمتم أن القرآن سحر وأن محمّداً ساحر، أم أنها الحق الهائل الرهيب؟ أم أنتم لا تبصرون النار كما كنتم لا تبصرون الحقّ في القرآن؟

نعيم الجنة

من شأن القرآن أن يقابل بين عذاب الكافرين ونعيم المتّقين، وفي الآيات [١٧ ـ ٢٨] نجد حديثاً عن ألوان التكريم التي يتمتع بها المتقون. فهم في الجنات يتمتّعون بألوان اللذائذ الحسية والمعنوية، وقد ألحق الله الذرية بالآباء إذا اشتركوا معهم في الإيمان وقصروا عنهم في العبادة والطاعة.

أدلة القدرة

في الجزء الأخير من السورة، نجد أنّ الآيات لها وقع خاص. ورنين يأخذ على النفس البشرية كلّ أنحائها، ويَجْبَه المنكرين بالعديد من الحجج، ويستفهم منهم بطريقة لاذعة ساخرة لا يملك أيّ منصف معها غير التسليم.

والآيات تبدأ بتوجيه الخطاب إلى رسول الله أن يُبَلِّغ الدعوة، فهو أمين على وحي السماء، بعيد عن الاتّهام بالكذب والجنون. وتسرد الآيات اتّهام الكفّار له بأنّه شاعر أو مُتَقَوِّل ادعى القرآن من عند نفسه، ونَسَبَه الى الله، فتطلب منهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن إن كانوا صادقين في دعواهم.

وأمامهم أدلّة القدرة، فهل خُلقوا من غير خالق؟ أم خَلَقُوا أنفُسَهم؟ وإذا انتفى لم يبقَ الا احتمال ثالث وهو أنهم خَلْق الله.

ويتوالى هذا الاستفهام الإنكاري يُقَرِّعهم بالحجة بعد الحجة، وبالدليل تلو الدليل.

فهذه السماء العالية مَنْ خلقها؟ هل هم خلقوها؟

وهل تطلب منهم يا محمد أجراً على تبليغ الرسالة؟

وهل يملكون أمر الغيب؟ وأمر

الغيب لا يطلع عليه إلاّ الله سبحانه وتعالى.

وهل لهم إلٰهٌ يتولاّهم غير الله؟ تنزه الله عن شركهم.

وعندما وصل جحودهم وعنادهم إلى هذا الحد من الغلوّ في الباطل، أمر الله، جلّ وعلا، رسوله (ص) أن يُعْرِضَ عنهم ويتركهم حتّى يلاقوا مصيرهم، وفي هذا اليوم لا ينفعهم كيدهم ولا تنجيهم مؤامراتهم.

ترابط الآيات في سورة «الطور»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة «الطور» بعد سورة «السجدة»، ونزلت سورة «السجدة» بعد «الإسراء» وقُبَيل الهجرة، فيكون نزول سورة «الطور» في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى في أولها: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢﴾ وتبلغ آياتها تسعاً وأربعين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة الإنذار بعذاب الدنيا والآخرة، وبهذا تشارك السورتين السابقتين في الغرض المقصود منهما، وهذا هو وجه ذكرها بعدهما.

إثبات الإنذار بالعذاب
الآيات [١ ـ ٤٩]

قال الله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾، فأقسم بهذا على وقوع ذلك العذاب، وذكر أنه يوم تمور السماء وتسير الجبال، وحينئذ يكون الهلاك للمكذِّبين به، ويَصْلَوْنَ النار بما كانوا يعملون؛ ثم ذكر ما أعد فيه للمتقين من جنات ونعيم، ليجمع بهذا بين طريق الترهيب وطريق الترغيب، قد أطال في هذا

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفني في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرخ.

الطريق، إلى أن ذكر مما يقوله المتقون في سبب نعيمهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾.

ثم انتقل السياق من هذا الى أمر النبي (ص) بأن يستمر على تذكيره بما أنزل عليه من ذلك الإنذار، لأنه حق ليس بقول كاهن ولا مجنون ولا شاعر كما يزعمون، ولأنهم لا ينكرون عن عقل، وإنما هم قوم طاغون؛ ثم أمرهم، جلّ وعلا، على سبيل الإلزام، أن يأتوا بمثله إن كانوا صادقين في ما يفترونه عليه، لِيُظهر عجزهم ويُبْطل ما زعموه من أنه كاهن أو مجنون أو شاعر. ثم سلك طريقاً آخر في إلزامهم؛ فذكر أنهم لم يُخلقوا من غير شيء، بلى لا بد لهم من خالق، وأنهم لا يملكون شيئاً من أمر هذا الخلق حتّى يقطعوا بنفي الحساب والعقاب، وأنهم لم ينزل عليهم بذلك نبأ من السماء، فألزمهم بأنّ لهم خالقاً هو الذي يتصرّف في أمورهم، ولا يملكون أن يمنعوا ما يريده من حسابهم على أعمالهم؛ وذكر سبحانه أنه لا شريك له في ذلك من الملائكة الذين يزعمون أنهم بناته؛ ثم انتقل السياق الى إلزامهم بطريق آخر فذكر تعالى أن النبي (ص) لا يسألهم على إنذاره أجراً حتّى يتهم فيه أو يثقلهم به، وأنهم لا علم عندهم بالغيب حتى يقطعوا بأنه لا حساب عليهم، وأنه لم يبق بعد هذا إلاّ أن يريدوا الكيد والعذاب لأنفسهم لقيام هذه الإلزامات عليهم، أو يكون لهم إلهٌ غير الله يدفع العذاب عنهم﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

ثم ختمت السورة ببيان فرط طغيانهم وعنادهم في تكذيب ما أُنذروا به، فذكر عزّ وجلّ أنهم لو نُزّل عليهم كِسَفٌ من السماء لعذابهم لقالوا: هذا سحاب تراكم بعضه على بعض ليمطرنا، وأمر النبي (ص) أن يتركهم في هذا الطغيان والعناد حتّى يلاقوا ما ينكرون. ثم ذكر أن لهم عذاباً دون عذاب الآخرة بتسليط المسلمين عليهم. وأمر النبي (ص) بالصبر الى أن يفي بهذا الوعد، فقال ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

أسرار ترتيب سورة «الطور»(*)

أقول: وجه وضعها بعد «الذاريات»: تشابههما في المطلع والمقطع، فإنّ في مطلع كلّ منهما صفة حال المتّقين بقوله تعالى في الآيات ١٥ ـ ١٧ من سورة الذاريات: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ﴾، الآيات. وفي مقطع كل منهما صفة حال الكفّار، بقوله في تلك: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الذاريات/ ٦٠]. وفي هذه: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الآية ٤٢](١).

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

(١) ومن المناسبة بين الطور والذاريات أنه تعالى ذكر تكذيب الكافرين، وردّ عليهم بإيجاز في الذاريات بقوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢﴾ وما بعدها. ثم فصّل ذلك في الطور من قوله جلّ وعلا: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩﴾ الى آخر السورة.

لغة التنزيل في سورة «الطور»(*)

١ ـ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾.

والمعنى: يوم يُدفَعون إلى النار دفعاً.

وقُرِئ: «يُدْعَوْن» من الدعاء.

أقول: ليس في العربية المعاصرة الفعل المضاعف «دَعَّ يَدُعُّ».

٢ ـ وقال تعالى: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

المصيطر بالصاد، أي: الغالب. وقُرِئ بالسين.

أقول: غلبت السين على المسيطر في العربية ولكن لغة التنزيل في القراءة المثبتة الغالبة جاءت بالصاد، وتعاقب السين والصاد معروف. ومثل هذا السراط والصراط، والكلمة بالسين في اللغة المعاصرة، وقد رسمت السين في القرآن تحت الصاد.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

المعاني اللغوية في سورة «الطور»(*)

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝ فَوَيْلٌ﴾ دخلت الفاء لأنه في معنى: إذا كان كذا وكذا فأشبه المجازاة، لأن المجازاة يكون خبرها بالفاء.

وقال: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝﴾ لأنك تقول: «تَرَبَّصْتُ زَيْداً» أي: تربصت به[1]».

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ.

(1) في الجامع ١٧/ ٧٢. وقال الأخفش: نتربص به الى ريب المنون فحذف حرف الجر كما تقول قصدت زيداً وقصدت الى زيد.

لكل سؤال جواب في سورة «الطور»(*)

إن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ مع أن الحور العين في الجنة مملوكات ملك يمين لا ملك نكاح؟

قلنا: معناه قرناهم بهن من قولهم زوّجت إبلي: أي قرنت بعضها إلى بعض، وليس من التزويج الذي هو عقد النكاح، ويؤيّده أن ذلك لا يعدّى بالباء بل بنفسه كما قال تعالى: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب/٣٧] ويقال زوّجه امرأة ولا يقال بامرأة.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى في وصف أهل الجنة ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ أي مرهون في النار بعمله؟

قلنا: قال الزمخشري: كأن نفس كل عبد ترهن عند الله تعالى بالعمل الصالح الذي هو مطالب به، كما يرهن الرجل عبده بدين عليه، فإن عمل صالحا فُك الرهن عنها، وخَلَصت، وإلا أُوبقت. وقال غيره: هذه جملة من صفات أهل النار وقعت معترضة في صفات أهل الجنة؛ ويؤيّده ما رُوي عن مقاتل، أنه قال: معناه: كل امرئ كافر بما عمل من الكفر مرتهن في النار، والمؤمن لا يكون مرتهناً، لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [المدثر].

فإن قيل: لِمَ قال تعالى في حقّ النبي (ص): ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾، وكل

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرخ.

واحد غيره كذلك لا يكون كاهناً ولا مجنوناً بنعمة الله تعالى؟

قلنا: معناه فما أنت بحمد الله وإنعامه عليك، بالصدق والنبوة، بكاهن ولا مجنون كما يقول الكفار. وقيل الباء هنا بمعنى «مع»، كما في قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون/ ٢٠]. وقوله تعالى: ﴿فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء/ ٥٢] ويقال: أكلت الخبز بالتمر: أي معه.

فإن قيل: ما معنى الجمع في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الآية ٤٨]؟

قلنا: معناه التفخيم والتعظيم، والمراد بحيث نراك ونحفظك؛ ونظيره في معنى العين قوله تعالى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾ [طه/ ٣٩] ونظيره في الجمع للتفخيم والتعظيم قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ [القمر/ ١٤] وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا﴾ [يس/ ٧١].

المعاني المجازية في سورة «الطور»(*)

في قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ استعارة، أي إنْ كانوا حكماء عقلاء كما يدّعون، فكيف تحمِلُهم أحلامُهم وعقولُهُم على أن يرموا رسول الله (ص) بالسِّحْرِ والجنون، وقد علموا بُعْدَه عَنْهما، ومباينتَه لهما؟

وهذا القول منهم سَفَهٌ وكذب، وهاتان الصفتان مُنافيتان لأوصاف الحلماء، ومذاهب الحكماء.

ومخرجُ قوله سبحانه: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا﴾ مخرج التبكيت لهم، والإزراء عليهم. ونظير هذا الكلام قوله سبحانه حاكياً عن قوم شُعيبٍ (ع): ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود/ ٨٧] أي دينك وما جئت به من شريعتك التي فيها الصلوات وغيرُها من العبّاداتِ، تَحمِلُكَ على أمرِنَا بِتَرْكِ ما يَعْبُدُ آباؤنا. وقد مضى الكلام على ذلك في موضعه.

وفي قوله سبحانه﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ وقد قرئ: (وأدبارَ النجوم) بفتح الهمزة استعارة على القراءتين جميعاً.

فمن قرأ بفتح الهمزة كان معناه: وأعقَابَ النجوم. أي أواخرها إذا انصرفت. كما يقال: جَاء فلانٌ في أعْقَاب القوم. أي في أواخرهم. وتلك صفة تخصُّ الحيوان المتصرِّف الذي

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

يوصَفُ بالمجيء والذهاب، والإقبال والإدبارِ. ولكنها استُعملت في النجوم على طريق الاتساع. فأمّا قراءةُ مَن قَرأ: ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ بالكسر، وهي القراءة المُثْبَتَة في المصحف الشريف، فمعناه قريب من المعنى الأول. فكأنه سبحانه وَصَفها بالإدبار بعد الإقبال. والمراد بذلك الأفوُلُ بعد الطلوع، والهبوطُ بَعْد الصعود.

سورة النّجم

٥٣

أهداف سورة «النجم»(*)

سورة «النجم» سورة مكية وآياتها ٦٢ آية، نزلت بعد سورة «الإخلاص».

١ ـ تكريم الرسول

في مطلع السورة نعيش لحظات مع قلب النبي محمد (ص)، مكشوفة عنه الحجب، مزاحةً عنه الأستار، يتلقى من الملأ الأعلى، يسمع ويرى ويحفظ ما وعى، وهي لحظات خُصّ بها ذلك القلب المصفّى، حينما عُرِجَ به في رحاب الملأ الأعلى.

أقسم الله، جلّ وعلا، بالثريا إذا سقطت عند الفجر، أن محمداً راشد غير ضال، مهتدٍ غير غاوٍ، مخلص غير مغرض، مبلّغ عن الحق بالحق غير واهم، لا مُفْتَرٍ ولا مبتدع، ولا ناطق عن الهوى في ما يبلّغكم من الرسالة، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾ وهو يبلّغكم ما يُوحَى إليه صادقاً أميناً.

وقد رأى النبيُّ (ص) جبريل (ع) مرتين على صورته التي خُلق عليها، الأولى عند غار حراء، وكان ذلك في مبدأ الوحي حينما رآه النبي يسدّ الأفق بخلقه الهائل، ثم دنا منه فتدلّى نازلاً مقترباً إليه فكان أقرب ما يكون منه على قاب قوسين أو أدنى، وهو تعبير عن منتهى القرب، فأوحى إلى عبد الله ما أوحى، بهذا الاجمال والتفخيم والتهويل.

والثانية، كانت ليلة الإسراء والمعراج، فقد دنا منه جبريل وهو على هيئته التي خلقه الله بها مرة أخرى

(*) انتقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴿١٤﴾﴾ أي شجرة ينتهي إليها علم الخلائق، أو انتهت إليها صحبة جبريل (ع) لرسول الله (ص) حيث وقف جبريل وصعد محمد (ص) درجة أخرى أقرب الى عرش ربه.

٢ ـ أوهام المشركين

تتحدث الآيات [١٩ـ ٢٨] عن آلهة المشركين المدَّعاة، اللات والعزى ومناة، وعن أوهامهم، عن الملائكة وأساطيرهم حول بُنُوّتها لله، واعتمادهم في هذا كلّه على الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، في حين أن الرسول (ص) يدعوهم الى ما دعاهم إليه عن تثبُّت وروية ويقين.

٣ ـ الإعراض عن الملحدين

أما المقطع الثالث من السورة، فيشمل الآيات [٢٩ـ ٣٢]، ويوجه الخطاب إلى الرسول (ص) أن يُعْرِض عنهم، وأن يُهمل شأنهم، وأن يدع أمرهم لله، الذي يعلم المسيء والمحسن، ويَجزي المَهْدي والضال، ويملك أمر السموات والأرض وأمر الدنيا والآخرة، ويحاسب بالعدل فلا يظلم أحداً، ويتجاوز عن الذنوب التي لا يصرّ عليها فاعِلُوها؛ هو الخبير بالنيات والطوايا، لأنه خالق البشر المطّلع على حقيقتهم في أطوار حياتهم جميعاً.

٤ ـ الصغائر من الذنوب

الصغائر هي ما دون الفاحشة، وهي القبلة واللمسة والمباشرة والنظرة وغيرها؛ فاذا التقى الختانان، وتوارت الحشفة، فقد وجب الغسل، وهذه هي الفاحشة.

روى البخاري ومسلم أن رسول الله (ص) قال: «إن الله تعالى اذا كتب على ابن آدم حظّه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه».

وروى ابن جرير أن ابن مسعود قال: زنا العين النظر، وزنا الشفتين التقبيل، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين المشي، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه، فإن تقدّم بفرجه كان زانياً وإلاّ فهو اللَّمم، وكذا قال مسروق والشعبي.

ويرى فريق من العلماء أن اللّمم هو الإلمام بالذنوب ثم التوبة منها،

فصاحب اللمم يقع في الكبائر أو يرتكب الآثام غير مُصِرٍّ عليها، ثم يندم ويتوب من قريب.

قال ابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أراه رفعه» في ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [الآية ٣٢]. قال اللَّمَّة من الزنا ثم يتوب ولا يعود، واللَّمَّة من السرقة ثم يتوب ولا يعود، واللَّمَّة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود. قال فذلك الإلمام. وروى ذلك موقوفاً على الحسن.

وهذا التفسير يفتح باب التوبة أمام الجميع حتى مرتكب الكبيرة لا ييأس، فإذا صدق في توبته، وأخلص في نيته، وأكد عزمه على التوبة النصوح، فإنّ أمامه رحمة الله الواسعة التي يشمل بها التائبين، ويستأنس لذلك بما في الآية من المغفرة:

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾.

والآية كما نرى تفتح باب الرجاء، وتدل الناس على عظيم فضل الله. فهو سبحانه خَلَقَهُمْ، وهو أعلم بهم. وحينما يذنبون لا يغلق باب الرحمة في وجوههم بل يفتح أبواب القبول للتائبين، ويغفر للمستغفرين، قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزمر].

وفي الصحيح أن رسول الله (ص) قال: «ينزل ربّنا كلّ ليلة إلى سماء الدنيا حينما يبقى ثلث الليل الأخير فينادي: يا عبادي هل من داع فأستجيب له، هل من مستغفر فأغفر له، هل من تائب فأتوب عليه، هل من طالب حاجةٍ فأقضيها له حتى يطلع الفجر». [والنزول هٰهنا ليس النزول المعهود، وهو بكيفيّة لا يعلمها إلاّ الله جلّ جلاله].

٥ ـ حقائق العقيدة

وفي الآيات الأخيرة من السورة [٣٣ ـ ٦٢] تعود الفواصل القصيرة والتنغيم الكامل في أسلوب بسيط، وإيقاع يسير، وتقرّر الآيات الحقائق الأساسية للعقيدة كما هي ثابتة منذ إبراهيم عليه السلام صاحب الحنيفية الأولى، وتُعرِّف البشر بخالقهم، فآثاره واضحة

أمام الناس، فهو الخالق الرازق صاحب الطَّوْل والإنعام، ومنه المبدأ وإليه المنتهى. وهو الذي أهلك المكذِّبين من عاد وثمود وقوم نوح، ولكنكم يا أهل مكة تضحكون وتسخرون، وتسترسلون في غَيِّكم وعنادكم، وأولى بكم أن تسجدوا لله سبحانه، وأن تعبدوه وأن تُقْبلوا على دينه، مقرّين لله عزَّ وجل بالعبودية ولمحمد (ص) بالرسالة.

ترابط الآيات في سورة «النجم»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة «النجم» بعد سورة «الإخلاص»، وكان نزولها بعد الهجرة الأولى للحبشة، وكانت هذه الهجرة في السنة السابعة من البعثة. فلمّا نزلت هذه السورة أشيع كَذِباً أنه نزل فيها بعد قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ تلك الغرانيقُ العلى، وإنْ شفاعتهن لترتجى؛ وأن قريشاً أسلمت حين آمن النبي (ص) بشفاعة آلهتها في تلك الشائعة المفتراة، فرجع مهاجرو الحبشة حين أشيع ذلك بينهم، فرأوا أن قريشاً لا تزال على كفرها، وبهذا تكون سورة النجم من السور التي نزلت فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء.

وقد سُميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى في أوّلها: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ وتبلغ آياتها اثنتين وستين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة إثبات أن ما جاء به النبي (ص) من وحي الملائكة، وهذا يقتضي أن الملائكة عباد الله من وظيفتهم الوحي وغيره، فلهذا انتقل الكلام في هذه السورة من هذا الغرض الى إبطال بنوّتهم لله تعالى؛ ولا شك في أن هذا الغرض يتصل بما جاء في السورة السابقة من زعمهم الباطل أن الرسول (ص) كاهن أو مجنون أو شاعر.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفني في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

نزول جبريل بالدعوة
الآيات [١ ـ ٦٢]

قال الله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾.

فأقسم بهذا على أن النبي (ص) ما ضلّ وما ينطق عن الهوى، كما هو شأن الكاهن والمجنون والشاعر؛ وإنما ينطق عن الوحي الذي ينزله عليه الملَكُ جبريل؛ ثم ذكر أن جبريل تارة ينزل إليه من السماء بالوحي، وتارة يصعد هو إليه بالسماء فيتلقاه منه، ويرى في ذلك ما يرى من آيات ربّه الكبرى.

ثم انتقل السياق من هذا إلى إبطال ما يزعمونه من أن هذه الملائكة بنات الله، وكانوا يتخذون لها أصناماً يعبدونها من اللات والعُزّى ومَناة، فذكر ما يتخذونه من هذه الأصنام الثلاثة، وأبطل أن يكون له منها بنات، تعالى عن ذلك عُلُوّاً كبيراً. وهم لا يرضون لأنفسهم إلا البنين، وذكر أن هذه مزاعم يقلّدون فيها آباءهم ولا دليل لهم عليها، ثم أبطل ما يتمنونه من شفاعتها لهم، وذكر جلّ وعلا أنّ كم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلاّ بعد إذنه ورضاه.

ثم عاد السياق إلى تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى من غير علم، فذكر أمْرَ الله تعالى النبي (ص) أن يعرض عمّن يتولى بعد هذا عنه، لأنهم لا يريدون الحق وإنما يريدون الحياة الدنيا. ثم ذكر جل جلاله أن له ما في السماوات والأرض ليجزي المحسن والمسيء بعمله، فلا تنفع هناك شفاعة شفيع له. وذكر سبحانه أن المحسنين هم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلاّ اللَّمَم، وأنه سيكون معهم واسع المغفرة؛ ثم ذكر الذي تولى من المشركين واعتمد على ما يزعمه من شفاعة الملائكة له، فرد عليه بأنه لا علم عنده بذلك من الغيب، وبما ورد في صحف موسى وإبراهيم: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾، إلى غير هذا مما نقله عن هذه الصحف؛ ثم ذكر أن ما يوحى إلى النبي (ص) نذير من تلك النُّذر التي أنزلت قبله، وأن ما ينذر به قد قربت ساعته، وأنكر عليهم أن يعجبوا ويضحكوا ممّا ينذرهم به، ولا يبكوا وهم سامدون: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ [الآية ٦٢].

أسرار ترتيب سورة «النجم»(*)

أقول: وجه وضعها بعد «الطور»: أنها شديدة المناسبة لها، فإن «الطور» ختمت بقوله تعالى: ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾. وافتتحت هذه بقوله سبحانه: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾.

ووجه آخر: أن «الطور» ذكر فيها ذرية المؤمنين، وأنهم تَبَعٌ لآبائهم[1]، وهذه فيها ذكر ذرية اليهود[2] في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الآية ٣٢].

ولمّا قال هناك في المؤمنين: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور/٢١]. أي: ما نقصنا الآباء بما أعطينا البنين، مع نفعهم بما عمل آباؤهم. قال هنا في صفة الكفّار أو بني الكفّار: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ خلاف ما ذكر في المؤمنين الصِّغار.

وهذا وجه بَيِّنٌ بديع في المناسبة، من وادي التضاد.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور/ ٢١].

(٢) بل فيها ذكر لذرية كل كافر حين استخرج الله ذرية آدم من صلبه وقسمهم فريقين: فريقاً للجنة، وفريقاً للسعير. انظر (تفسير ابن كثير: ٧/ ٤٣٧).

مكنونات سورة «النجم»(*)

١ـ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ [الآية ١].

قال مُجاهِد: الثريا.

وقال السُّدِّيّ: الزُّهَرَة.

أخرجهما ابنُ أبي حاتم.

وقيل: هو زُحَل.

وقيل: هو محمد (ص).

حكاهما الكَرماني.

٢ ـ ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾.

قال الربيع، والسُّدِّيّ: هو جبريل.

أخرجه ابن أبي حاتم.

٣ ـ ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ [الآية ١٠].

قال ابنُ عبّاس: هو محمد (ص).

وقال الحسن: هو جبريل[١].

أخرجهما ابنُ أبي حاتم[٢].

٤ـ ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ﴾.

قال السُّدِّيّ: هو العاصي بنُ وائِل.

وقال مُجاهد: الوليد بن المُغيرة[٣].

أخرجهما ابنُ أبي حاتم.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِماتِ الأقران في مُبْهمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) قال ابن كثير في «تفسيره» ٤/٢٤٩ «معناه فأوحى جبريل إلى عبدالله محمّد ما أوحى، أو فأوحى الله الى عبده محمد بواسطة جبريل، وكلا المعنيين صحيح».

(٢) انظر «تفسير الطبري» ٢٧/٢٦.

(٣) أخرجه أيضا الطبري في «تفسيره» ٢٧/٤٢.

لغة التنزيل في سورة «النجم»[*]

١ ـ وقال تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

سامدون، أي: شامخون مُبَرْطِمُون[1].

وقيل: لاهون ولاعبون.

أقول: وهذا من الكلم الذي لم يتّضح للمفسّرين، واختلافهم البعيد في فهمه دليل على ذلك.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) بَرْطَمَ الرَّجُلُ: أدلى شفتيه من الغضب.

المعاني اللغوية في سورة «النجم»(*)

قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ جماعة «القُوَّة» وبعض العرب يقول: «حُبْوَة» و«حِبَى» فينبغي لهؤلاء أن يقولوا: «القِوى»، بكسر القاف، في هذا القياس. ويقول بعض العرب «رِشْوَة» و«رُشا»، ويقول بعضهم «رُشوة» و«رِشا». وبعض العرب يقول: «صُوَرٌ»، و«صِوَرٌ» والجيدة «صُوَر» ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر/ ٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨﴾ فقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾ بدل من قوله سبحانه ﴿بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦﴾ أي: بأنْ لا تَزِرُ.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ.

لكل سؤال جواب في سورة «النجم»(*)

إن قيل: الضلال والغواية واحدة، فما الحكمة في قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾.

قلنا: قيل إن بينهما فرقاً لأنّ الضلال ضدّ الهدى، والغيّ ضدّ الرّشد، وهما مختلفان مع تقاربهما. وقيل معناه: ما ضلّ في قوله ولا غوى في فعله، ولو ثَبَتَ اتحاد معناهما، لكانَ من باب التأكيد باللفظ المخالف، مع اتّحاد المعنى.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ أدخل كلمة الشكّ، والشكّ محال على الله تعالى؟

قلنا: «أو» هنا للتخيير لا للشكّ، كأنّه قال سبحانه وتعالى: إن شئتم قدّروا ذلك القرب بقاب قوسين، وإن شئتم قدّروه بأدنى منهما. وقيل معناه: بل أدنى. وقيل هو خطاب لهم بما هو معهود بينهم. وقيل هو تشكيك لهم لئلاّ يعلموا قدر ذلك القرب، ونظيره قوله تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧﴾ [الصافات] والكلام فيهما واحد.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۝٢٠﴾. من رؤية القلب لا من رؤية البصر، فأين مفعولها الثاني؟

قلنا: هو محذوف تقديره: أفرأيتموها بنات الله وأنداده، فإنهم كانوا يزعمون أن الملائكة وهذه الأصنام بنات الله عز وجل.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى: ﴿الثَّالِثَةَ

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرخ.

﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ فوصف الثالثة بالأخرى، والعرب إنما تصف بالأخرى الثانية لا الثالثة، فظاهر اللفظ يقتضي أن يكون قد سبق ثالثة أولى، ثم لحقتها الثالثة الأخرى فتكون ثالثتان؟

قلنا: الأخرى نعت للعُزّى تقديره: أفرأيتم اللات والعزى الأخرى ومناة الثالثة لأنها ثالثة الصنمين في الذِّكر، وإنّما أخّر الأخرى رعاية للفواصل، كما قال سبحانه: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه] ولم يقل أُخَر رعاية للفواصل.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾، أي لا يقوم مقام العلم، مع أنه يقوم مقام العلم في صورة القياس؟

قلنا: المراد به هنا الظّنّ الحاصل من اتّباع الهوى دون الظّنّ الحاصل من النظر والاستدلال؛ ويؤيده قوله تعالى قبل هذا: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [الآية ٢٣].

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ وقد صح في الأخبار وصول ثواب الصدقة والقراءة والحج وغيرها الى الميت؟

قلنا: فيه وجوه: أحدها ما قاله ابن عبّاس رضي الله عنهما أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور/ ٢١]، معناه أنه أدخل الأبناء الجنّة بصلاح الآباء، قالوا وهذا لا يصح لأنّ الآيتين خبر، ولا نسخ في الخبر. الثاني: أن ذلك مخصوص بقوم إبراهيم وموسى (ع)، وهو حكاية ما في صحفهم، فأمّا هذه الأمّة فلها ما سعت وما سعى لها. الثالث أنه على ظاهره، ولكن دعاء ولده وصديقه وقراءتهما وصدقتهما عنه من سعيه أيضاً، بواسطة اكتسابه للقرابة أو الصداقة أو المحبّة من الناس، بسبب التقوى والعمل الصالح.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى بعد تعديد النقم: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ والآلاء هي النعم؟

قلنا: إنما قال سبحانه بعد تعديد النعم والنقم نِعَم، لما فيها من الزجر والمواعظ، فمعناه: فبأيّ نِعَم ربّك الدالّة على وحدانيته تشكّ يا وليد بن المغيرة.

المعاني المجازية في سورة «النجم»(*)

في قوله سبحانه: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ استعارة. والمراد، والله أعلم، أنّ ما اعتقده القلب من صحة ذلك المنظر الذي نظره، والأمر الذي باشره، لم يكن عن تخيُّلٍ وتوُّهم، بل عن يقينٍ وتأمُّلٍ. فلم يكن بمنزلة الكاذب من طريق تَعَمُّد الكذب، ولا من طريق الشكوك والشُّبَه.

وفي قوله سبحانه: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ استعارة. وهي قريبة المعنى من الاستعارة الأولى. والمراد، والله أعلم، أن البَصَر لم يَمِلْ عن جهة المُبصَرِ إلى غيره مَيْلاً يَدْخُلُ عليه به الاشتباه، حتّى يشكّ فيما رآه. ولا طغى، أي لم يجاوز المُبصَر ويرتفع عنه، فيكون مخطئاً لإدراكه، متجاوزاً لمحاذاته.

فكأنّ تلخيص المعنى: أنّ البصر لم يُقَصِّر عن المرئي فيقع دونه، ولم يزد عليه فيقع وراءه، بل وافَق موضعه، ولم يجاوز موقعه. وأصل الطُّغْيان طلبُ العلوّ والارتفاع، من طريق الظلم والعدوان، وهو في صفة البصر خارجٌ[1] على المجاز والاتّساع.

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) أي سائر على طريق المجاز والاتّساع في التعبير.

سورة القَمَر

٥٤

أهداف سورة «القمر»(*)

سورة «القمر» سورة مكية، آياتها ٥٥ آية، نزلت بعد سورة «الطارق».

انشقاق القمر

يصف مطلع السورة حادثاً فذًا هو انشقاق القمر بقدرة الله تعالى معجزةً لرسول الله (ص).

وقد وردت روايات متواترة، من طرقٍ شتّى، عن وقوع انشقاق القمر في مكّة قبل الهجرة.

جاءت هذه الروايات في البخاري ومسلم ومسند الإمام أحمد، وغيرها من كتب الثّقات.

وروى البخاري عن عبدالله بن مسعود قال: انشقّ القمر على عهد رسول الله (ص) فقالت قريش هذا سِحْرُ ابن أبي كَبْشَة، قال: فقالوا: انظروا ما يأتيكم من السُّفار فإنّ محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلّهم، قال: فجاء السُّفار فقالوا ذلك.

وهذه الروايات، مع غيرها، تتفق على انشقاق القمر بمكّة.

كما ثَبَتَ أنّ أهل مكة قابلوا هذه الآية بالعِناد، وادّعوا أن محمداً (ص) سَحَرَ أهل مكة حتى يشاهدوا القمر منشقاً؛ ثم اتّفقوا على أن يسألوا عن الحادث المسافرين القادمين إلى مكّة، وقد شهد المسافرون بأنهم شاهدوا القمر نصفين في ذلك اليوم، فادّعى

(*) انتقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

أهل مكة أن محمداً (ص) سحر الناس جميعا.

قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾.

ويرى بعض المفسّرين أنّ الآية تخبر عن الأحداث الكونية المقبلة، فعند قيام الساعة ستنشقّ الأرض والسموات كما قال سبحانه ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾[الانشقاق]. كما ينشق القمر وينفصل بعضه عن بعض، وتتناثر النجوم، وتُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض والسمواتُ غيرَ السموات.

سياق السورة وافكارها

في الآيات [١ ـ ٨] وصف لجحود الكافرين، وعدم إيمانهم بالقرآن، وانصرافهم عنه إلى الهوى والبهتان.

وفي الآيات تهديد ووعيد لهؤلاء المشركين بيوم الجزاء، فهم يَخرجون من قبورهم خاشعين من الذل، في حالة سيئة من الرعب والهول، فيسرعون الخطى ليوم الحشر كأنهم جراد منتشر، وقد أُسقِط في أيديهم، فيقول الكافرون هذا يوم صَعْبٌ عَسِر.

خمس حلقات من مصارع المكذبين

الآيات [٩ ـ ٤٢] تشتمل على عرض سريع لمصارع قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط، وفرعون ومَلَئِه، وكلّها موضوعات سبقت في سور مكّية؛ ولكنها تُعرض في هذه السورة عرضاً خاصّاً، يحيلها جديدة كلّ الجِدّة، فهي تُعْرض عنيفةً عاصفة، وحاسمة قاصمة يَفيض منها الهول، ويتناثر حولها الرعب ويظللها الدمار والفزع.

وأخصّ ما يميزها في سياق السورة، أنّ كلاًّ منها يمثل حلقة عذاب رهيبة سريعة لاهثة مكروبة، يشهدها المكذّبون، وكأنّما يشهدون أنفسهم فيها، ويحسّون إيقاعات سياطها؛ فاذا انتهت الحلقة وبدأوا يستردّون أنفاسهم اللاهثة المكروبة، عاجلتهم حلقة جديدة أشدّ هولاً ورعباً، حتّى تنتهي الحلقات الخمس في هذا الجو المفزع الخانق.

١ ـ قوم نوح
[الآيات ٩ ـ ١٧]

ونلمح في الآيات مشهد المكذّبين،

يتهمون نوحاً (ع) بالجنون، ونوح يظهر لله ضعفه ويدعوه أن ينتصر له، وتستجيب السماء فينهمر المطر وتنفجر عيون الأرض، ويلتقي ماء السماء بماء الأرض، ثم يغرق الكافرون، وينجي الله نوحاً ومن آمن معه، ويطرح القرآن سؤالاً لإيقاظ القلوب الى هول العذاب وصدق النذير: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾؟

وهذا القرآن سهل التناول، ميسّر الإدراك، فيه جاذبية الصدق والبساطة وموافقة الفطرة، لا تفنى عجائبه ولا يَخْلُقُ على كثرة الرد، وكلما تدبّره القلب عاد منه بزادٍ جديد، وكلما صحبته النفس زادت له ألفة، وبها أنساً: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾؟ هذا هو التعقيب الذي يتكرّر بعد كل مصرع من مصارع السابقين.

٢ ـ عاد قوم هود
[الآيات ١٨ ـ ٢٢]

أرسل الله عليهم ريحاً عاتية، تدمّر كلّ شيء بإذن ربّها، وقد سلسلوا أنفسهم بالسلاسل حتّى لا تعصف بهم الريح، وشقّوا لأجسامهم شقوقا داخل الأرض، وتركوا رؤوسهم خارجها، فكانت الريح تكسر رؤوسهم وتتركهم كالنخيل التي قطعت رؤوسها، وتركت أعجازها وجذورها.

٣ ـ ثمود قوم صالح
[الآيات ٢٣ ـ ٣٢]

وقد أُرسل إليهم نبي الله صالح ومعه الناقة، وأخبرهم بأن الماء قِسْمَة بينهم وبينها، فللناقة يوم ولهم يوم، لها شِرْبٌ ولهم شِرْبُ يومٍ معلوم.

وكان اليوم الذي تَرِدُ فيه ثَمُودُ البئر، لا تأتي الناقة اليه ولا تشرب منه، ولكنها تسقيهم لبناً؛ وفي اليوم التالي تحضر شِرْبَها وحدها. ومع وضوح هذه الآية، فإنَّ ثَمُودَ مَلَّتْ هذه القسمة، وحرّضوا شقيّاً من الأشقياء على قتل الناقة، فلما قَتَلَها استحقّوا عقاب الله، وأرسل الله عليهم صيحة واحدة فكانوا كَفُتاتِ الحشيش اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لغنمه.

٤ ـ قوم لوط
[الآيات ٣٣ ـ ٤٠]

اشتهر قوم لوط، عليه السلام، بالشذوذ الجنسي، حيث استغنى

الرجال بالرجال، وهو انتكاس للفطرة وشرود في الرذيلة، ولقد حذرهم لوط مغبة فعلتهم، فكذبوه وجادلوا بالباطل، وجاءت الملائكة الى نبي الله لوط في صورة رجال عليهم مسحة الجمال والجلال، فرغب قوم لوط ان يفعلوا فعلتهم الشنعاء في الملائكة، وراودوه عن ضيفه ليفعلوا بهم اللّواط، فاستحقوا عقوبة السماء، وأرسل الله عليهم حاصباً أي ريحاً تحمل الحجارة ليذوقوا العذاب.

٥ ـ ثم تعرض حلقة قصيرة عن فرعون وعناده وجحوده، وعقاب الله له حيث أخذه أخذ عزيز مقتدر.

وفي الآيات الأخيرة من السورة [٤٣ ـ ٥٥] تعقيب على هلاك السابقين، وتوجيه لأهل مكة بأنهم لن يكونوا أحسن حالاً ممن سبقهم؛ ثم إنّ السّاعة تنتظرهم وهي أدهى وأمرّ من كلّ عذاب شاهدوه فيما سبق، أو سمعوا وصفه فيما مرّ، من الطوفان الذي أصاب قوم نوح، الى الريح الصرصر مع عاد، الى الصاعقة مع ثمود، الى الحاصب مع قوم لوط، الى إغراق فرعون.

٥ ـ حكمة الخالق

وتشير الآيات الى حكمة الله العالية: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾.

وهذه الحكمة تظهر في خلق الكون، وفي خلق السماء والأرض، وفي خلق الإنسان، وفي خلق الطيور والحيوانات، وفي سائر خلق الله ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾ [النور].

إنّ قدرة الله تعالى وراء طرف الخيط البعيد لكل حادث، ولكلٍّ نشأة ولكلٍّ مصير، ووراء كل نقطة وكل خطوة وكل تبديل أو تغيير، إنّه قدر الله سبحانه، النافذ الشامل الدقيق العميق.

وأحياناً تخفى الحكمة على العباد، فيستعجلون أمراً، والله لا يعجّل لعجلة العباد؛ فالواجب أن يرضى المؤمن بالقضاء والقدر، وأن يحني رأسه أمام حكمة الله ومشيئته.

ثم يعرض الختام مشهد المجرمينَ يُسحبون في النار على وجوههم ليذوقوا العذاب. ويعرض مشهد المتقين في نعيم الجنة، ورضوان الله العلي القدير.

ترابط الآيات في سورة «القمر»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة «القمر» بعد سورة «الطارق»، ونزلت سورة «الطارق» بعد سورة «البلد»، ونزلت سورة «البلد» بعد سورة «ق»، وكان نزول سورة «ق» فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء، فيكون نزول سورة «القمر» في ذلك التاريخ أيضا.

وقد سُمّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى في أولها: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ وتبلغ آياتها خمساً وخمسين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة: بيان اقتراب الساعة التي أُنذر المشركون بها، وقد جاء في آخر سورة «النجم»، أن ساعتهم قد أزِفت، فجاءت هذه السورة بعدها في هذا الغرض تأكيداً له، ورجوعاً إلى سِيَاق سورة «الذاريات» وسورة «ق» من الإنذار بالعذاب، وقد جاءت سورة «النجم» بعد سورة «الذاريات»، للمناسبة المذكورة فيها؛ فلما انتهت مناسبتها عاد السياق الى أصله قبلها.

اقتراب ساعة العذاب
الآيات [١ ـ ٥٥]

قال الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ فذكر سبحانه أن ساعة عذابهم قد اقتربت، وأنهم مع

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفني في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

هذا مستمرون في إعراضهم وزعمهم أن ما ينذرون به سِحْرٌ لا حقيقة له، وأنهم يتبعون في تكذيبهم بذلك أهواءهم، وسيعلمون أنه أمر مستقر، ولقد جاءهم في القرآن مِن أنباء مَنْ قبلهم ما فيه مُزْدَجَر وحكمة لهم؛ ثم أمر النبي(ص) أن يتولى عنهم لأنهم لا يتبعون إلا أهواءهم، وأخذ السياق في تهديدهم بذلك اليوم الذي اقترب أجله، وانتقل هذا السياق من تهديدهم بهذا الى تهديدهم بما حصل لمن كذّب قبلهم، ففصّل في هذا ما أُجمِل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾.

وذكر السياق ما حصل لقوم نوح، وما حصل لعاد، وما حصل لثمود، وما حصل لقوم لوط، وما حصل لآل فرعون، ثم ذكر أنهم ليسُوا خيراً من أولئك المكذّبين قبلهم حتى يبقي الله عليهم، وأنه سبحانه سيهزم جمعهم ويهلكهم؛ ثم يذيقهم عند قيام الساعة ما هو أدهى وأمرُّ، وقد فُصّل ما يحصل لهم فيها، ما يحصل فيها للمتقين، ليُجْمع بهذا بين الترهيب والترغيب، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝٥٥﴾.

أسرار ترتيب سورة «القمر»(*)

أقول: لا يخفى ما في توالي هاتين السورتين من حُسن التناسق في التسمية، لما بين «النجم» و«القمر» من الملابسة. ونظيره توالي «الشمس» و«الليل» و«الضحى»، وقبلها سورة «الفجر».

ووجه آخر: أن هذه السورة بعد «النجم» «كالأعراف» بعد «الأنعام»، و«كالصافات» بعد «يس»: إنها تفصيل لأحوال الأمم المشار إلى إهلاكهم في قوله، تعالى، هناك: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [النجم](1).

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) جاء تفصيل ذلك على الترتيب، وزيد عليه، في سورة القمر، من قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ [الآية ٩]، إلى قوله سبحانه ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾.

مكنونات سورة «القمر»(*)

١ ـ ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ [الآية ٦].

هو إسرافيل.

٢ ـ ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ۝﴾.

قال زِرُّ بن حُبَيْش: يوم الأربعاء. أخرجه ابنُ أبي حاتم[1].

٣ ـ ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ [الآية ٢٩].

هو قُدَار بن سالف، ويُلَقَّب بالأُحَيْمِر.

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِمات الأقران في مُبْهَمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) لم تصح الأحاديث الواردة في ذم يوم الأربعاء مطلقاً.

لغة التنزيل في سورة «القمر»(*)

١ ـ قال تعالى: ﴿حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝﴾.

أقول: ولولا خط المصحف لكان الرسم: فما تُغني النذر، بالياء في «تغني». وخَطّ المصحف في حذف الياء هذه كان لغرض صوتي، هو أن المدّ الطويل الذي تحققه الياء يحدث ضرباً من الثِّقَلِ، عند وصل الفعل بالفاعل «النذر». فكأن اتصال الكسرة بضمة النون هو اتصال منسجم، لا يتحقّق لو رسمت الياء، فاقتضت ما تستحق من المدّ.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝﴾.

في قوله تعالى: ﴿يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾، وحُذِفت الواو من الفعل، والياء من الاسم لقصر المدّ الذي يقتضيه إحسان وصل الكلمة بالكلمة التي تتلوها، إحساناً في الأداء لا يتوفّر مع وجود أصوات المدّ.

وقوله تعالى: ﴿نُّكُرٍ﴾، أي: مُنكَر، وهو من باب الوصف بالمصدر.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [الآية ٢٥].

والأشر: البَطِر المتكبر.

أقول: وفي لغة المعاصرين يقال: مفترس أشِر، أو طمّاع أشِر أي: شديد الشراهة والإقبال على الافتراس والقتل والفتك.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامّرائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ۝٣١﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾، أي: الذي يعمل الحظيرة وما يحتظر به ييبس بطول الزمان، وتتوطّأه البهائم، فيَتَحطّم ويتهشم.

المعاني اللغوية في سورة «القمر»(*)

قال: ﴿خُشَّعًا﴾ [الآية ٧] بالنصب على الحال، أي يخرجون من الأجداث خُشَّعاً. وقرأ بعضهم (خاشِعاً) لأنها صفة مقدّمة فأجراها مجرى الفعل نظيرها: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ [القلم/ ٤٣] [والمعارج/ ٤٤].

وقال تعالى: ﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٍ﴾ [الآية ١٩] قرئت: (يَوْمٍ نَحْسٍ) على الصفة.

وقال سبحانه: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ [الآية ٢٤] بنصب البشر لما وقع عليه حرف الاستفهام، وقد أسقط الفعل على شيء من سببه.

وقال تعالى: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴿٤٩﴾﴾ بجعل المس يذاق في جواز الكلام، ويقال: «كيفَ وَجَدْتَ طعمَ الضَرْبِ»؟ وهذا مجاز. وأما نصب «كلّ»، ففي لغة من قال: «عبدَ اللهِ ضَرَبْتُه» وهو في كلام العرب كثير. وقد رفعت «كلُّ» في لغة من رفع، ورُفعت على وجه آخر.

وقال تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ﴿٤٤﴾ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ بجعل دُبُرٍ واحدٍ للجماعة في اللفظ. ومثل ذلك قوله جل جلاله: ﴿لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ﴾ [ابراهيم/ ٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ بجعل الخبر واحداً على الكل.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

لكل سؤال جواب في سورة «القمر»(*)

إن قيل: ما الحكمة في إعادة التكذيب في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ [الآية ٩] لماذا لم يقل عزّ من قائل: كذبت قبلهم قوم نوح عبدنا؟

قلنا: معناه كذّبوا تكذيباً بعد تكذيب. وقيل إن التكذيب الأول منهم بالتوحيد، والثاني بالرسالة. وقيل التكذيب الأول منهم لله تعالى، والثاني لرسوله (ص).

فإن قيل: لِمَ قال تعالى في وصف ماء الأرض والسماء: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ [الآية ١٢] ولم يقل فالتقى الماءان؟

قلنا: أراد به جنس المياه.

فإن قيل: الجزاء إنما يكون للكافر لا للمكفور، فلِمَ قال تعالى: ﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾؟

قلنا: جزاء مفعول له فمعناه: ففتحنا أبواب السماء وما بعده ممّا كان يسبّب إغراقهم جزاءً لله تعالى لأنه مكفور به، فحذف الجار وأوصل الفعل بنفسه، كقوله تعالى ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ [الأعراف/١٥٥] والجزاء يضاف إلى الفاعل وإلى المفعول كسائر المصادر. الثاني: أنه نوح (ع) إما لأنه مكفور به بحذف الجار، كما مر من الكفر الذي هو ضد الإيمان، أو لأنّ كلّ نبيّ نعمةٌ مَنَّ الله بها على قومه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]. وقال رجل للرشيد: الحمد لله عليك، فقال ما

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

معنى هذا: فقال أنت نعمة حمدت الله عليها، فكأنه قال: جزاء لهذه النعمة المكفورة؛ وكفران النعمة يتعدّى بنفسه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾ [البقرة]. الثالث: أن «من» بمعنى «ما»، فمعناه: جزاء لما كان كفر من نعم الله تعالى على العموم. وقرأ قتادة كفر بالفتح: أي جزاءً للكافرين.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى: ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠﴾ أي منقلع، ولم يقل منقعرة؟

قلنا: إنّما ذكر الصفة لأنّ الموصوف، وهو النخل، مذكّر اللفظ ليس فيه علامة تأنيث، فاعتبر اللفظ؛ وفي موضع آخر اعتبر المعنى، وهو كونه جمعاً، فقال سبحانه: ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ٧﴾ [الحاقة] ونظيرهما قوله تعالى: ﴿لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ٥٢ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ٥٣ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ٥٤﴾ [الواقعة] وقال أبو عبيدة: النخل يذكّر ويؤنّث، فجمع القرآن اللغتين. وقيل إنّما ذكر رعاية للفواصل.

المعاني المجازية في سورة «القمر»(*)

في قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ استعارة؛ والمراد، والله أعلم، بتفتيح أبواب السماء تسهيلُ سُبُلِ الأمطار حتى لا يَحْبِسَها حابِسٌ، ولا يَلْفِتَها لافِتٌ. ومفهومُ ذلك إزالةُ العوائق عن مجاري العيون من السماء، حتى تصير بمنزلة حَبِيسٍ فُتح عنه بابٌ، أو مَعقولٍ أُطْلِقَ عنه عِقال. وقوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ أي اختلط ماء الأمطار المنهمرة، بماء العيون المتفجرة، فالتقى ماءاهما على ما قَدَره الله سبحانه، من غير زيادة ولا نُقصان. وهذا من أفصح الكلام، وأوقع العبارات عن هذه الحال.

وفي قوله سبحانه: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾ ولفظ إلقاء الذِّكْرِ مستعار: والمراد به أن القرآنَ لِعِظَمِ شأنه، وصعوبة أدائه، كالعبء الثقيل الذي يَشُقُّ على من حُمِّلَهُ، وأُلْقِيَ عليه ثقله.

وكذلك قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾ [المزمل]. وكذلك قولُ القائل: «ألقيتُ على فلان سؤالاً، وألقيْتُ عليه حساباً» أي سألتهُ عمّا يستَكِدُّ له هاجسه، ويستعمل به خاطره.

وفي قوله سبحانه: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ استعارة، لأن المرارة لا يوصف بها إلا المذوقات والمتطعّمات؛ ولكنَّ الساعة لما كانت مكروهة عند مستحقّي العقاب، حَسُنَ وصفها بما يوصفُ به الشيء المكروهُ المَذاق.

ومن عادة مَن يُلاقي ما يكرهُه، ويَرى ما لا يُحبُّه، أن يُحدث ذلك تهيُّجاً في وجهه، يدلّ على نفور جَأْشِه، وشدّة استيحاشه، فكذلك هؤلاء إذا شاهَدوا أماراتِ العذاب، ونوازلَ العقاب، ظَهرَ في وجوههم ما يُستدلّ به على فَظاعة الحال عندهم، وبلوغ مكروهها من قلوبهم، فكانوا كَلائِكِ[1] المُضْغَةِ المَقِرَةِ[2]، وذائِقِ الكأس الصَّبِرَةِ، في فَرْط التقطيب، وشدة التهيج. وشاهدُ ذلك قولُه سبحانه: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المؤمنون].

---

(١) اللائك: اسم فاعل من لاك يلوك أي مضغ.

(٢) المَقِرة على وزن فَرِحَة: المُرّة الطعم يقال: مَقِرَ الشيءُ مقرًا إذا صار مرًّا.

سورة الرّحمٰن

٥٥

أهداف سورة «الرحمن»(*)

سورة «الرحمن» سورة مدنية وآياتها ٧٨ آية، نزلت بعد سورة «الرعد».

وتتميز سورة «الرحمن» بجَرْسِها، وقصر آياتها، وتعاقب الآيات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾. فنسمع هذا الرنين الأخاذ، والإيقاع الصاعد الذاهب الى بعيد، والنِعَم المتعدّدة بتعليم القرآن، وخلق الانسان، وتعليم البيان.. وكلّ هذه النعم مصدرها رحمة الرحيم الرحمٰن، صاحب الفضل والإنعام؛ فاذا استرسلنا في قراءة السورة رأينا حشداً من مظاهر النعم، وآلاء الله الباهرة الظاهرة، في جميل صنعه، وإبداع خلقه، وفي فيض نَعْمائه، وفي تدبيره للوجود وما فيه، وتوجيه الخلائق كلّها الى وجهه الكريم...

وسورة «الرحمن»، إشهاد عام للوجود كلّه على الثَّقَلَيْن: الإنس والجن، إشهادٌ في ساحة الوجود، على مشهدٍ مِنْ كُلّ موجود، مع تحدّ للجن والإنس إن كانا يملكان التكذيب بآلاء الله، تحدِّياً يتكرّر عَقِبَ بيانِ كلّ نعمة من نِعَمه، التي يعدّدها ويفصّلها، ويجعل الكون كلّه مَعْرِضاً لها، وساحةَ الآخرة كذلك.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾.

تكررت هذه الآية في السورة إحدى وثلاثين مرة، لتذكّر الإنس والجن، بنِعَم الله الجزيلة عليهم، بأسلوب مُعْجِز يتحدّى بُلَغاء العرب؛ ولا شك

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

في أنّ هذه النعم الضافية، التي أسبغها ربهم عليهم، تستحق من العباد الشكر والايمان، لا الكفر والطغيان.

والآلاء جمع «أَلَى»، أو «إِلَى» وهي النعمة، أي نعم الله عليكم وافرة، ترونها أمامكم، وخلفكم، وفوقكم، وتحتكم، فبأيّ هذه النعم تكذّبان؟ والخطاب هنا للجنّ والانس، لتذكيرهما بالأفضال المتلاحقة من الله تعالى، ولا يستطيعان أن يكذّبا، أو يجحدا، أيّ نعمة من هذه النعم.

رُوِي أنّ رسول الله (ص) خرج على أصحابه، فقرأ عليهم سورة «الرحمن»، من أوّلها إلى آخرها، فسكتوا، فقال النبي (ص): لقد قرأتها على الجنّ، فكانوا أحسن ردّاً منكم، كنت كلما أتيت على قوله تعالى ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ قالوا: لا بشيء من نعمك ربّنا نكذّب، فلك الحمد.

كما رُوي أن قَيْسَ بن عاصم المنقري، جاء الى رسول الله (ص) فقال له: يا محمد، اتْلُ عليّ شيئاً ممّا أُنزِلَ عليك، فتلا عليه سورة «الرحمن»، فقال: أعِدْها فأعادها (ص) فقال: والله إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وأسفله مغدق، وأعلاه مسفر، وما يقول هذا بَشَرٌ، وأنا أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنك رسول الله.

المعنى الإجمالي للسورة

المِنّة على الخلق بتعليم القرآن، وتلقين البيان، ولفت أنظارهم إلى صحائف الوجود الناطقة بآلاء الله: الشمس، والقمر، والنجم، والشجر، والسماء المرفوعة، والميزان الموضوع، وما فيها من فاكهة، ونخل، وحَبٍّ، وريحان، والجن والإنس، والمشرقان، والمغربان، والبحران بينهما برزخ لا يبغيان، وما يخرج منهما، وما يجري فيهما.

فاذا تمّ عرض هذه الصحائف الكبار، عُرِض مشهد فنائها جميعاً، مشهد الفناء المطلق للخلائق، في ظل الوجود المطلق لوجه الله الكريم الباقي، الذي إليه تتوجّه الخلائق جميعاً، ليتصرّف في أمرها بما يشاء، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾.

وفي ظل الفناء المطلق للإنسان، والبقاء المطلق للرحمن، يجيء التهديد المروِّع، والتحدّي الكوني للجن والإنس، ومن ثمّ يعرض السياق مشهد

النهاية، مشهد القيامة، يعرض في صورة كونية، يرتسم فيها مشهد السماء حمراء سائلة، ومشهد العذاب للمجرمين، ثم يعرض ألوان الثواب للمتقين، ويصف الجنة وما فيها من نعيم مقيم أعدّه الله للمتقين، ويبين أن منازل الجنات مختلفة، ونعيمها متفاوت، والجزاء على قدر العمل.

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴿٢٩﴾﴾.

قال المفسّرون: شؤونٌ يبديها لا شؤونٌ يبتديها[1]، فهو سبحانه صاحب التدبير، الذي لا يشغله شأن عن شأن، ولا يَنِدُّ عن علمه ظاهر، ولا خافٍ؛ والخلق كلهم يسألونه، فهو سبحانه مناط السؤال، وغيره لا يُسأل، وهو معقد الرجاء ومَظَنّةُ الجواب.

وهذا الوجود، الذي لا تعرف له حدود، كله منوط بقدره، متعلّق بمشيئته، وهو سبحانه قائم بتدبيره.

هذا التدبير الذي يتبع ما ينبت، وما يسقط من ورقة، وما يكمن من حبة في ظلمات الارض، وكل رطب وكل يابس، يتبع الأسماك في بحارها، والديدان في مساربها، والوحوش في أوكارها، والطيور في أعشاشها، وكل بيضة وكل فرخ، وكل خلية في جسم حي.

تفسير النسفي للآية

في تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴿٢٩﴾﴾، قال النسفي: كل من في السماوات والأرض مفتقرون إليه، فيسأله أهل السماوات ما يتعلّق بدينهم، وأهل الأرض ما يتعلق بدينهم ودنياهم.

وكل وقت وحين، يُحدِث أموراً ويجدّد أحوالاً؛ كما روي أنه عليه السلام تلاها، فقيل له وما ذلك الشأن؟ فقال: من شأن أن يغفر ذنباً ويفرّج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين. وعن ابن عيينة: الدهر عند الله يومان، أحدهما اليوم الذي هو مدة الدنيا، فشأنه فيه الأمر، والنهي، والإحياء، والإماتة، والإعطاء، والمنع؛ واليوم الآخر، هو القيامة، فشأنه فيه الجزاء، والحساب.

وقيل نزلت في اليهود حينما قالوا:

(١) تفسير النسفي ١٥٩/٤، والمعنى يظهرها امام أعين الناس ولا يبتكرها اليوم بل يقضي بوقوعها، ومن أصول الإيمان أن نؤمن بالقضاء والقدر. والقضاء ما وقع أمام الناس والقدر ما قدّر الله وقوعه في الأزل.

إنّ الله لا يقضي يوم السبت شأناً. وسأل بعض الملوك وزيره عن الآية، فاستمهله الى الغد، وذهب كئيباً يفكّر فيها فقال غلام له أسود: يا مولاي أخبرني ما أصابك، فأخبره، فقال الغلام أنا أفسّرها للملك فأعلمه، فقال أيها الملك: شأن الله أنه يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، ويُخرج الحيّ من الميت، ويُخرج الميت من الحي، ويَشفي سقيماً ويُسْقم سليماً، ويَبْتلي معافًى ويُعافي مبتلًى، ويُعزّ ذليلاً، ويُذلّ عزيزاً، ويُغني فقيراً. فقال الملك: أحسنت، وأمر الوزير أن يخلع عليه ثياب الوزارة، فقال: يا مولاي هذا من شأن الله. وقيل سوق المقادير إلى المواقيت. وقيل إن عبد الله بن طاهر دعا الحسين بن الفضل، وقال له أشكلت علي آيات دعوتك لتكشفها لي: قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩﴾ وقد صح أن القلم جفّ، بما هو كائن الى يوم القيامة. فقال الحسين: كل يوم هو في شأن، فانها شؤون يبديها لا شؤون يبتديها[1] أي يظهرها لعباده في واقع الناس، على وفق ما قدّره في الأزل، من إحياء وإماتة، وإعزاز وإذلال، وإغناء وإعدام، وإجابة داعٍ، وإعطاء سائل، وغير ذلك؛[2] فالناس يسألونه سبحانه بصفة مستمرّة، وهو سبحانه مجيب الدعاء، بيده الخلق والأمر، يغيّر ولا يتغيّر، يجير ولا يجار عليه، يقبض ويبسط ويخفض ويرفع، وهو بكل شيء عليم.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾.

---

(١) تفسير النسفي ٤/١٥٩.

(٢) تفسير الجلالين ص ٤٩٤.

ترابط الآيات في سورة «الرحمن»(*)

تاريخ نزولها وتسميتها

نزلت سورة «الرحمن» بعد سورة «الرعد»، ونزلت سورة «الرعد»، فيما بين صلح الحُدَيْبِية وغزوة تَبُوك، فيكون نزول سورة «الرحمن» في ذلك التاريخ أيضاً. وقد سُمّيت هذه السورة بهذا الاسم، لافتتاحها به في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾ وتبلغ آياتها ثماني وسبعين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة، الدعوة إلى الله تعالى، بطريق الترغيب، وذلك بتعداد نِعَمه على عباده، وقد أخذ المشركون في السورة السابقة، بطريق الإنذار والترهيب، فأخذوا في هذه السورة بطريق الترغيب، تفنّناً في السياق، وتجديداً لنشاط السامع، على أنها لم تخل مع هذا من الأخذ بالترهيب أيضاً.

تَعْداد نِعَم الله على عباده
الآيات [١ ـ ٧٨]

قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣﴾ فذكر سبحانه نعمته على عباده بإنزال القرآن لهدايتهم، وبخلقهم وتعليمهم البيان، وبخلق الشمس والقمر بِحُسبان، وبخلق النجم والشجر، وبرفع السماء ووضع الميزان، وبوضع الأرض وما فيها، من فاكهة ونخل وحَبٍّ ورَيْحان؛ ثم ذكر سبحانه أنه خلق الإنسان من

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفني في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرخ.

صلصال، والجانُ من نارٍ، وأنه ربُّ المشرقين والمغربين، وأنه مَرَجَ البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لا يبغيان، ويخرج منهما اللؤلؤ والمرجان، وتجري فيهما السفن كالأعلام؛ ثم خُتِمَ السياقُ بقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ ليبين أن الإنسان يتمتع بذلك الى أجلٍ، فلا يصح أن يغترّ به وينسى ربّه؛ ثمّ عدّد سبحانه نِعَمَه، فذكر أنه يسأله من في السماوات والأرض، ما يحتاج إليه في دينه ودنياه كل يوم، وأنه سيفرغ لهم ويحاسبهم على جحد هذه النعم، فلا يمكنهم أن يُفْلتوا من حسابه؛ وأنه سيرسل عليهم شُواظاً من نار ونحاس، فلا يمنعهم منهما أحد، وأن ذلك سيكون إذا انشقت السماء فكانت وردةً كالدُهان؛ ثم ذكر سبحانه ما يكون من حسابهم وعقابهم في ذلك اليوم؛ وأعقبه جلّ شأنه بذكر ما أعدّه لمن خاف مقامه فلم يجحد ما أنعم به عليه، ومضى السياق في تفصيل هذا إلى أن ختمه بقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

أسرار ترتيب سورة «الرحمن»(*)

أقول: لمّا قال سبحانه وتعالى في آخر القمر: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾. ثم وصف حال المجرمين في سقر، وحال المتّقين في جنّاتٍ ونَهَر، فصل هذا الإجمال في هذه السورة أتمّ تفصيل، على الترتيب الوارد في الإجمال.

فبدأ بوصف مرارة الساعة، والإشارة الى إدهائها، ثم وصف النار وأهلها[١]، والجنة وأهلها[٢]، ولذا قال فيهم: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾. وذلك هو عين التقوى[٣]. ولم يقل: لمن آمن وأطاع، أو نحوه، لتتوافق الألفاظ في التفصيل والمفصّل.

وعرف بذلك، أنّ هذه السورة بأسرها، شرح لآخر السورة التي قبلها، فللّه الحمد، على ما ألهم وفهّم.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) وَصْفُ النار وأهلها جاء في قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ إلى ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾.

(٢) وصْفُ الجنة وأهلها جاء في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ الى آخر السورة.

(٣) التقوى هي: خوفه عزّ وجلّ. وبذلك يتفق التفصيل هنا مع الاجمال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾.

مكنونات سورة «الرحمن»(*)

١ - ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾.

أخرج ابنُ أبي حاتم عن ابن شَوْذَب، وعطاء: أنها نزلت في أبي بكر(١).

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِمات الأقران في مُبْهَمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) وسبب ذلك جاء في رواية عطاء، التي أخرجها عنه ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، في كتاب «العظمة»: أن أبا بكر، ذكر، ذات يوم، القيامة والموازين، والجنة والنار، فقال: وددت أني كنت خضراء من هذه الخضر، تأتي عليّ بهيمة تأكلني، وأني لم أخلق. فنزلت: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾. انظر «لباب النقول في أسباب النزول» للسيوطي ص ٧١٦ (بهامش تفسير الجلالين).

لغة التنزيل في سورة «الرحمن»(*)

١ ـ وقال تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾. قوله تعالى: ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾، أي: فوّارتان بالماء.

أقول: والنّضخ والنّضح واحدٌ، إلاّ أنّ الأوّل أكثر؛ وهذه من فوائد الإبدال الصوتي في العربية، ومثل هذا الهدير والهديل.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾.

«الرَّفْرَف»: ضرب من البسط، وقيل الوسائد، وقيل: كلّ ثوبٍ عريضٍ رَفرَف. وقرئ «رَفارف خضر»؛ وقرئ: (وعباقري حسان).

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

المعاني اللغوية في سورة «الرحمن»(*)

قال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ أي: بحساب. وأضمر الخبر. أظن، والله أعلم، كأنه أراد يَجْرِيانِ بِحِساب[1].

وقال تعالى: ﴿ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١﴾ وواحدها «الكِمُّ».

وقال سبحانه: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ۝٤٨﴾ وواحدها: «الفَنَنُ»[2].

وقال جلّ شأنه: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ۝٦٤﴾ تقول «ازْوَرَّ» و«ازْوارَّ».

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) نقله في زاد المسير ٨/١٠٦.

(٢) في الهامش: «الفنن» جمعها «الأفنان» ثم «الأفانين» وهي «الأغصان».

لكل سؤال جواب في سورة «الرحمن»(*)

إن قيل: أيُّ مناسبة بين رفع السماء ووضع الميزان حتى قرن بينهما؟

قلنا: لما صُدِّرت هذه السورة بتعديد نِعَمه سبحانه على عبيده، ذَكَر سبحانه من جملتها وضع الميزان الذي به نظام العالم وقِوامَه، ولا سيّما أن المراد بالميزان العدل في قول الأكثرين، والقرآن في قول، وكل ما تعرف به المقادير في قول، كالمكيال والميزان والذراع المعروف، ونحوها.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨﴾ أي لا تجاوزوا فيه العدل، مغنٍ عمّا بعده من الجملتين، فما الحكمة في ورودهما؟

قلنا: المراد بالطغيان فيه أخذ الزائد، وبالإخسار فيه إعطاء الناقص، وأمر بالتوسط الذي هو إقامة الوزن بالقسط، ونهى عن الطرفين المذمومين.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى هنا: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۝١٤﴾ وهو الطين اليابس الذي لم يطبخ لكن له صلصلة: أي صوت إذا نُقِرَ؛ وقال تعالى في موضع آخر: ﴿مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر/ ٢٦ و٢٨]؛ وقال تعالى: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١﴾ [الصافات] وقال تعالى: ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم/ ٢٠]؟

قلنا: الآيات كلها متفقة في المعنى. لأنه تعالى خلق الإنسان من تراب، ثمّ جعله طيناً، ثمّ حمأً مسنوناً، ثم صلصالاً.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿رَبُّ

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرخ.

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾ فكرر ذكر الرب، ولم يكرره في سورة المعارج، بل أفرده فقال تعالى ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج/ ٤٠] وكذا في سورة المزمّل: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾؟

قلنا: إنما ذكر الرب تأكيداً، فكان التأكيد بهذا الموضع أليق منه بذينك الموضعين، لأنه موضع الامتنان وتعديد النعم، ولأنّ الخطاب فيه مع جنسين وهما الإنس والجن.

فإن قيل: بعض الجمل المذكورة في هذه السورة، ليست من النِّعَم، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦﴾ وقوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝٣٥﴾ فكيف حَسُنَ الامتنان بعدها بقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٦﴾؟

قلنا: من جملة الآلاء دفع البلاء وتأخير العقاب، فإبقاء من هو مخلوق للفناء نعمة. وتأخير العقاب عن العصاة أيضاً نعمة، فلهذا امتنّ علينا بذلك.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝٣١﴾ والله تعالى لا يشغله شيء؟

قلنا: قال الزجّاج: الفراغ في اللغة على ضربين أحدهما الفراغ من شغل، والآخر القصد للشيء والإقبال عليه، وهو تهديد ووعيد، ومنه قولهم: سأتفرّغ لفلان: أي سأجعله قصدي، فمعنى الآية سنقصد لعقابكم، وعذابكم، وحسابكم.

فإن قيل: لِمَ وعد سبحانه الخائف جنّتين فقط؟

قلنا: لأن الخطاب للثقلين، فكأنّه قيل لكلّ خائفَيْن من الثقلين جنتان، جنة للخائف الإنسي، وجنة للخائف الجنّي. وقيل المراد به أن لكل خائف جنتين، جنة لفعل الطاعات، وجنة لترك المعاصي. وقيل جنة يثاب بها، وجنة يُتفضّل بها عليه زيادة، لقوله تعالى ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس/ ٢٦] أي الجنة وزيادة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الآية ٥٦] ولم يقل سبحانه فيهما، والضمير للجنتين؟

قلنا: الضمير لمجموع الآلاء المعدودة: من الجنتين، والعينين، والفاكهة، وغيرها، مما سبق ذكره. وقيل: هو للجنتين، وإنّما جُمِعَ لاشتمال الجنتين على قصور ومنازل.

وقيل: الضمير للمنازل والقصور، التي دل عليها ذكر الجنتين. وقيل: الضمير لمجموع الجنان، التي دل عليها ذكر الجنتين. وقيل: الضمير عائد الى الفرش، لأنها اقرب، وعلى هذا القول «في» بمعنى على، كما في قوله تعالى﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطور/ ٣٨].

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾﴾ أي لم يَفْتَضُّهُن، ونساء الدنيا لا يَفتضُّهن الجان، فما الحكمة في تخصيص الحور بذلك؟

قلنا: معناه أن تلك القاصرات الطرف إنسيّات للإنس وجنّيات للجنّ، فلم يطمث الإنسيات إنسي، ولا الجنيات جني؛ وهذه الآية دليل على أن الجنّ يواقعون كما يواقع الإنس. وقيل فيها دليل، على أن الجني يغشى الإنسيّة في الدنيا.

المعاني المجازية في سورة «الرحمن»(*)

في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾، استعارة: فالنجم هٰهنا ما نَجَم من النبات. أي طلَعَ وظهَرَ. والمراد بسجود النبات والشجر، والله أعلم، ما يظهر عليها من آثار صنعة الصانع الحكيم، والمقدِّر العليم، بالتنقُّل من حال الإطْلاع، الى حال الإيناع، ومن حال الإيراق الى حال الإثمار، غير ممتنعة على المصرِّف، ولا آبية على المدبِّر.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾، نلاحظ أن لَفْظ الميزان هٰهنا مستعار، على أحد التأويلين. وهو أن يكون معناه العدل الذي تستقيم به الأمور، ويعتدل عليه الجمهور. وشاهِدُ ذلكَ قولُه تعالى: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء/ ٣٥] أي بالعدل في الأمور.

ورُوي عن مجاهد(١) أنه قال: القسطاس: العدل بالرومية. ويقال: قُسطاس، وقِسطاس. بالضم والكسر، كقُرطاس وقِرطاس.

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) هو من المفسرين الأوّلين للقرآن الكريم، والمشهور أنه أول من دوّن في التفسير. وتفسيره غير موجود. ولعل الموجود هو تفسير ابن عبّاس رواه مجاهد. وذكر ابن عطية في «مقدمته» أن صدر المفسرين، والمؤيد فيهم، هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويتلوه عبدالله بن عبّاس، ويتلوه مجاهد وسعيد بن جُبَيْر وغيرهما، ويذكر ابن عطية أن مجاهداً قرأ على ابن عبّاس، قراءة تفهُّم ووقوف، عند كل آية. وذكر جرجي زيدان، أن مجاهداً توفي سنة ١٠٤هـ. انظر «تاريخ آداب اللغة العربية» جـ١ ص٢٠٥، و«مقدّمتان في علوم القرآن» بتحقيق المستشرق آرثر جفري، ونشر مكتبة الخانجي.

وفي قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠﴾ استعارة. والمراد: أنه سبحانه أرسل البحرين طاميين، وأمَارَهُما مائعين، وهما يلتقيان بالمقاربة، لا بالممازجة، فبينهما حاجز يمنعهما من الانحراف، ويصدُّهما عن الاختلاط.

ومعنى قوله تعالى: ﴿لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠﴾ أي لا يغلب أحدهما على الآخر، فيقلبه إلى صفته، لا الملحُ على العذب، ولا العذب على الملح. وكنى تعالى بلفظ البغي، عن غَلَبة أحدهما على صاحبه. لأن الباغي، في الشاهد، اسم لمن تغلّب من طريق الظلم بالقوة والبسطة، والتطاول والسطوة.

وقد مضى الكلام على مثل هذه الاستعارة في ما تقدّم. إلاّ أن فيها هٰهنا زيادة، أوْجَبَت إعادةَ ذِكْرِها.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ استعارة. وقد تقدّم الكلام على نظيرها. والمراد: وتبقى ذاتُ ربِّك وحقيقتُه. ولو كان محمولاً على ظاهره، لكان فاسداً مستحيلاً، على قولنا وقول المخالفين. لأنه لا أحد يقول من المشبِّهة والمجسِّمَة، الذين يثبتون لله سبحانه أبعاضاً مؤلّفة، وأعضاءً مصرَّفةً، إنَّ وجه الله سبحانه يَبْقى، وسائره يَبْطُل وَيفْنَى. تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

ومن الدليل على أن المراد بوجه الله هٰهنا، ذاتُ الله، قولُهُ سبحانه: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ ألا تَرىَ أنه سبحانه، لمّا قال في خاتمة هذه السورة: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ قال: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾ ولم يقل (ذو) لأن اسم الله غيرُ الله، ووجهُ الله هو الله، وهذا واضح البيان، وقد مضى الكلام على هذا المعنى فيما تقدم.

وفي قوله سبحانه: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝٣١﴾ استعارة. وقد كان والدى الطاهر الأوحد، ذو المناقب، أبو أحمد الحسين[1]، ابن موسى

(١) كان نقيب الأشراف في بغداد، وهو والد الشريفين: الرضي، والمرتضى، وقد تعرّض للقبض عليه من قبل عَضُد الدولة بن بويه سنة ٣٦٩هـ ثم أطلقه ابنه شرف الدولة ابن بويه، وعزل عن النقابة سنة ٣٨٤هـ ثم أعيد إليها سنة ٣٩٤هـ وأضيف إليه الحج والمظالم، فلم يزل على ذلك، الى أن توفي ضريراً سنة ٤٠٠هـ، فرثاه ولداه كما رثاه أبو العلاء المعري، ومهيار الديلمي، وجماعة من الشعراء.

الموسوي، رضي الله عنه وأرضاه، سألني عن هذه الآية في عُرض كلام جرَّ ذكرها، فأجبتهُ في الحال بأعرف الأجوبة المقولة فيها. وهو أن يكون المراد بذلك: سنعمد لعقابكم، ونأخذ في جزائكم، على مساوئ أعمالكم، وأنشدته بيت جريرٍ كاشفاً عن حقيقة هذا المعنى.

وهو قوله:

أَلآنَ وقد فرغتُ الى نُمَيْرٍ
فهذا حين صرتُ لها عذابا

فقال: فرغت إلى نُمير، كما يقول: عمدت إليها. فأعلمنا أن معنى فرغت ههنا معنى عمدت وقصدت. ولو كان يريد الفراغ من الشغل لقال: فرغت لها، ولم يقل فرغت إليها.

وقال بعضهم: إنما قال سبحانه: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ ولم يقل: سَنَعْمِد. لأنه أراد أي سنفعل فعل من يتفرغ للعمل من غير تمجيع[1] فيه، ولا اشتغال بغيره عنه، ولأنه لما كان الذي يَعْمِد الى الشيء ربّما قصَّر فيه لشغله معه بغيره، وكان الفارغ له، في الغالب، هو المتوفِّرَ عليه دون غيره، دُلِلْنا بذلك على المبالغة في الوعيد، من الجهة التي هي أعرف عندنا، ليقع الزجر بأبلغ الألفاظ، وأدلّ الكلام على معنى الإبعاد.

وقال بعضهم: أصل الاستعارة موضوع على مستعار منه ومستعار له، فالمستعار منه أصل، وهو أقوى. والمستعارُ له فرعٌ، وهو أضعف. وهذا مطّرد في سائر الاستعارات، فإذا تقرر ذلك كان قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ من هذا القبيل.

فالمستعار منه هُهنا ما يجوز فيه الشغل، وهو أفعال العباد، والمستعار له مالا يجوز فيه الشغل، وهو أفعال الله تعالى. والمعنى الجامعُ لهما الوعيدُ، إلاّ أن الوعيد بقول القائل: سأتفرّغ لعقُوبتك، أقوى من الوعيد بقوله: سأعاقبك. مِن قِبلِ أنه كأنما قال: سأتجرّد لمعاقبتك، كأنه يريد استفراغ قوّته في العقوبة له.

ثم جاء القرآن على مَطْرَح كلام العرب، لأن معناه أسبق الى النفس، وأظْهَرُ للعقل، والمراد به تغليظ الوعيد، والمبالغة في التحذير. ومثل

---

(١) التمجيع: الممازحة والمماجنة في العمل، وعدم أخذه مأخذ الجد.

ذلك قولهُ تعالى في المدثّر: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ فالمستعار منه ههنا ما يجوز فيه المنع، وهو أفعال العباد، والمستعارُ له مالا يجوز فيه المنع، وهو أفعال القديم سبحانه كما قلنا أولا؛ والمعنى الجامع لهما: التخويف والتهديد.

والتهديد بقول القائل: «ذَرْني وفلاناً»، إذا أراد المبالغة في وعيده، أقوى من قوله: خوِّف فلاناً من عقوبتي، وحَذِّرْهُ من سطوتي. وهذا بَيِّنٌ بحمد الله تعالى.

وقد يجوز أن يكون لذلك وجه آخر، وهو أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ أي سنُفرِّغُ لكم ملائكتنا الموكّلين بالعذاب، والمعدين لعقاب أهل النار. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر] أي جاء ملائكةُ ربِّك. ويكون تقدير الكلام: وجاء ملائكة ربِّك وهم صفاً صفاً. كما تقول: أقْبَل القوم وهمْ زَحْفاً زَحْفاً. والمَلَكُ ههنا لفظ الجنس، وإنما أعيد ذكر المَلَكِ ليدل على المحذوف الذي هو اسم الملائكة، لأنه ما كان يسوّغ أن يقول: وجاء ربك وهُمْ صفاً صفاً، ويريد الملائكة على التقدير الذي قدّرناه، لأنّ الكلام كان يكون مُلْبِساً، والنظام مختلاً مضطرباً.

وقد يجوز أيضاً أن يكون المعنى: وجاء أمر ربك، والمَلكُ صفاً صفاً. كلا القولين جائز.

وقرأ[1] حمزة والكسائي: (سيَفرُغ لكم)، بالياء وفتحها.

(١) انظر القرطبي ج ١٧ ص ١٦٩.

سورة الواقِعَة

٥٦

أهداف سورة «الواقعة»(*)

سورة «الواقعة» سورة مكية آياتها ٩٦ آية، نزلت بعد سورة «طه».

ثلاثة أصناف

عند قيام القيامة يرتفع شأن المؤمنين، وينخفض قدر المكذّبين، وينقسم الناس الى ثلاثة اقسام:

أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، والسّابقون المقرّبون.

وقد فصّلت الآيات [١٠ _ ٢٦] ما أُعِدّ للسابقين في جنات النعيم، فَهُمْ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾، مشبكة بالمعادن الثمينة، ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾ في راحةٍ وخلوّ بال من الهموم والمشاغل، ولهم في الجنة ما يشتهون، من المتعة والنعيم والحُورِ العِينِ، وحياتُهم كلّها سلام: تسلّم عليهم الملائكة، ويسلّم بعضهم على بعض، ويَبْلُغُهُمُ السلامُ من الرحمن.

أصحاب اليمين

تصف الآيات [٢٧ _ ٤٠] ما أُعِدّ لأصحاب اليمين، فهم في ﴿سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ والسّدْرُ شجر النبق الشائك، ولكنه هنا مخضودٌ شوكُه ومنزوع، ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾ والطّلح شجر الموز، منضود معدّ للتداول، بلا كدّ ولا مشقة.

يتمتع أصحاب اليمين بألوان البهجة وصنوف التكريم، فهم في حدائق من شجر نَبْقٍ لا شوك فيه، وشجر موز منتظم الثمر، وفي ظلٍ منبسط، وماء

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ _ ١٩٨٤.

يجري بين أيديهم كما يشاؤون، ولديهم فاكهة كثيرة الكمّ والأنواع، لا تنقطع عنهم ولا يمنعون من تناولها، وقد أعِدّ لهم في الجنة أسرّة عالية طاهرة، عليها زوجات طاهرات، قد خُلِقْنَ خلقاً جديداً يتّسم بالكمال والجمال، وأُنشئن إنشاءً جديداً من غير ولادة، وهنّ أبكارٌ لم يُمْسَسْنَ ﴿عُرُبًا﴾ [الآية ٣٧] متحبّبات إلى أزواجهنّ ﴿أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾ كلهّن في سن واحدة، في ريعان الشباب، وطراوة الصِّبا.

أصحاب الشمال

تصف الآيات [٤١ ـ ٥٧] ما أُعِدَّ لأصحاب الشمال، فهم في ﴿سَمُومٍ ﴿٤٢﴾﴾ وهو هواء ساخن ينفذ الى المسام، ويشوي الأجسام، ﴿وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾﴾ وهو ماء مُتَناهٍ في الحرارة، ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾ ظل من دخان أسود ساخن، لا بارد كسائر الظلال، ولا كريم ينتفع به، لأنهم كفروا بالله، وانغمسوا في الشهوات، وأنكروا البعث والجزاء.

آيات القدرة الآلهية

تعرض الآيات [٥٨ ـ ٧٤] آثار القدرة الإلهية المبدعة، وتحرك قلوب المشاهدين، لينظروا في أصل خلقتهم، وفي زرعهم الذي تُزاوله أيديهم، وفي الماء الذي يشربون، وفي النار التي يُوقِدُون.

وهي طريقة فذة للقرآن الكريم، حين يلفت الإنسان الى أبسط مظاهر الحياة ومشاهدها، ليبني له أضخم عقيدة دينية، وأوسع تصوّر كوني. هذه المشاهدات التي تدخل في تجارب كلّ انسان، في النسل، في الزرع، في الماء، في النار؛ فأيّ انسان على ظهر هذه الأرض لم تدخل هذه المشاهدات في تجاربه؟

من هذه المشاهدات البسيطة الساذجة، ينشئ القرآن العقيدة، لأنه يخاطب كل إنسان في بيئته.

وهذه المشاهدات البسيطة هي بذاتها أضخم الحقائق الكونية وأعظم الأسرار الربّانية:

نشأة الحياة الإنسانية... وهي سر الأسرار.

نشأة الحياة النباتية معجزة كذلك، الماء أصل الحياة، النار... المعجزة التي صنعت الحضارة الانسانية.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾.

«إنّ دَوْر البشر في أمر هذا الخلق لا يزيد على أن يودع الرجل ما يُمْني رَحِمَ امرأة، ثم ينقطع عمله وعملها، وتأخذ يد القدرة في العمل وحدها في هذا الماء المَهين، تعمل وحدها في خلقه، وتنميته، وبناء هيكله، ونفخ الروح فيه، ومنذ اللحظة الأولى، وفي كل لحظة تالية، تتحقّق المعجزة، وتقع الخارقة التي لا يصنعها إلاّ الله، والتي لا يدري البشر كنهها وطبيعتها، كما لا يعرفون كيف تقع، بَلْهَ أن يشاركوا فيها»[1].

الزرع والماء والنار

يتابع القرآن الكريم طَرَقاته على القلب البشري ليتأمّل، ويخاطب النفوس الإنسانية، ليرشدها الى مواطن القدرة فيما بين يديها.

فهذا الزرع الذي ينبت ويؤتي ثماره، ما دورهم فيه؟ إنهم يحرثون، ويُلقون الحب والبذور التي صنعها الله.. ثم تسير الحبة في طريقها للنمو، سير العاقل، العارف الخبير بمراحل الطريق، الذي لا يخطئ ولا يضل.

إنّ يد القدرة هي التي تتولّى خُطاها على طول الطريق، فإذا الحبة عودٌ أخضر ناضر، وإذا النواة نخلة كاملة سامقة مثمرة.

ويتابع القرآن لَمَساته لاستثارة التفكير والتأمّل، فيناقش المخاطبين:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩﴾.

أي أخبروني أيُّها المنكرون الجاحدون عن الماء العذب الذي تشربونه، هل فكّرتم وتدبّرتم من الذي صعّده من البحار والمحيطات، وجعله بخاراً، ثُمَّ سحاباً متراكماً، ثُمَّ صيّره ماءً عذباً فُراتاً.

ولو شاء الله سبحانه لجعل ذلك الماء ملحاً مرّاً، لا يحيي الزرع ولا الضَّرْع، ولا يُستساغ لمرارته، فهلاّ تشكرون ربّكم على إنزال المطر، عذباً زلالاً سائغاً، لشرابكم أنتم وأنعامكم وزرعكم.

ثم يذكّرهم بنعمة النار التي يوقدونها: من الذي أنبت شجرتها

(١) في ظلال القرآن ٢٧/ ١٣٩.

الخضراء من الأرض، وأودع في الشجرة العناصر الأوّلية القابلة للاشتعال؛ لقد جعل الله، سبحانه، النار في الدنيا تَذْكِرَةً للناس بنار الآخرة ﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ أي للمسافرين ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي نَزِّهِ الله، سبحانه، وانْسُبْ إليه، جلَّ جلاله، العظمة والقدرة والخلق والإبداع، فهو الإله العلي القدير.

مواقع النجوم

في الآيات [٧٥ ـ ٨٠] نلمس سموّ القرآن وطهارته، وعلوّ شأنه ومنزلته. وقد مهّدت الآيات ببيان آثار القدرة، في خلق النجوم، وتحديد أماكنها، وتنظيم سيرها، بحيث لا يصطدم نجم بآخر. قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾.

«ويقول الفلكيون، إنّ من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدّة بلايين نجم، ما يمكن رؤيته بالعين المجردة، وما لا يرى إلاّ بالمجاهر والأجهزة، وما يمكن أن تُحِسَّ به الأجهزة دون أن تراه؛ هذه كلّها تسبح في الفلك الغامض، ولا يوجد أيّ احتمال أن يقترب مجالٌ مغناطيسي لنجم، من مجالِ نجمٍ آخَرَ، أو يصطدم بكوكب آخر، إلاّ كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادي يسيران في اتجاه واحد وبسرعة واحدة، وهو احتمال بعيد وبعيد جداً ان لم يكن مستحيلاً»(١).

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾.

وليس قول كاهن، كما تدّعون، ولا قول مجنون، ولا مفترٍ على الله من أساطير الأولين، ولا تنزّلت به الشياطين؛ الى آخر هذه الأقاويل. إنما هو قرآن كريم، كريم بمصدره، وكريم بذاته، وكريم باتجاهاته، كريم على الله، كريم على الملائكة، كريم على المؤمنين.

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ من دَنَس الشِّرْك والنفاق، ودنس الفواحش، أي لا تصل أنوار القرآن وبركاته وهدايته، إلاّ إلى القلوب الطاهرة.

---

(١) عبد الرازق نوفل، الله والعلم الحديث، ص ٣٣.

وروي عن علي رضي الله عنه، وابن مسعود، ومالك، والشافعي، أنّ المعنى: لا يمسّه من كان على جَنابةٍ، أو حَدَثٍ، أو حَيْض.

وروي عن ابن عبّاس، والشَّعْبي، وجماعة، منهم أبو حنيفة، أن المصحف، أو بعضه، يجوز لِلْمُحْدِثِ مَسُّهُ، وبخاصة للدرس والتعليم[1].

نهاية الحياة

في الآيات [٨٣ ـ ٩٦] نجد الإيقاع الأخير في السورة لحظة الموت، اللمسة التي ترتجف لها الأوصال، واللحظة التي تُنهي كلّ جدال، واللحظة التي يقف فيها الحي بين نهاية طريق وبداية طريق، حيث لا يملك الرجوع ولا يملك النُّكوص: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

وإننا لنكاد نسمع صوت الحشرجة، ونبصر تقبّض الملامح، ونحسّ الكَرْب والضيق، من خلال قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾، كما نكاد نبصر نظرة العَجْز، وذهول اليأس، في ملامح الحاضرين، من خلال قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾. هنا، في هذه اللحظة، وقد فَرَغَتِ الروح من أمر الدنيا، وخلّفت وراءها الأرض وما فيها؛ وهي تستقبل عالماً لا عهد لها به، ولا تملك من أمره شيئاً، إلاّ ما ادّخرت من عمل، وما كَسَبَتْ من خير أو شر.

فإن كان الميت المُحْتَضَر من السابقين في الإيمان، فروحُه ترى علائم النعيم الذي ينتظرها: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾؛ ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾﴾، وهم دون المقرّبين السّابقين في المنزلة والدرجة، فإنّ الملائكة تبلّغه السلام من الله، ومن الملائكة ومن أقرانه أصحاب اليمين، ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾﴾ فَنُزُلُهُ عند ذلك، الحميم الساخن، والماء الحار، وعذاب الجحيم.

ثم تُختتم السورة في إيقاع عميق رزين، يفيد أن ما قَصَّهُ الله سبحانه في هذه السورة، حقٌّ ثابت، ويقينٌ صادق لا شكَّ فيه.

---

(١) انظر المنتقى للشوكاني.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٩٦﴾.

الأفكار العامة للسورة

قال الفيروزآبادي: معظم مقصود السورة: ظهور واقعة القيامة، وأصناف الخلق، بالإضافة الى العذاب والعقوبة، وبيان حال السّابقين بالطّاعة، وبيان حال قوم يكونون متوسّطين بين أهل الطّاعة، وأهل المعصية، ويذكر حال أصحاب الشمال، والغرقى في بحر الهلاك، وبرهان البعث من ابتداء الخلقة، ودليل الحشر والنشر من الحرث والزرع، وحديث الماء والنار، وما ضمنهما من النعمة والمنّة، ومن المصحف وقراءته في حالة الطهارة، وحال المتوفّى في ساعة السّكْرة، وذكر قوم بالبشارة، وقوم بالخسارة، والشهادة للحق سبحانه بالكبرياء والعظمة[1] بقوله سبحانه: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٩٦﴾، وقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨﴾، ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣﴾.

بُدِئ بذكر خلق الانسان، ثم بما لا غنى له عنه، وهو الحَبُّ الذي منه قوته وقوّته، ثم الماء الذي منه سَوْغُه وعَجْنُه، ثمّ النّار التي بها نضجه وصلاحه[2].

فضل السورة

عن عبدالله بن مسعود قال: سمعت رسول الله (ص) يقول: «من قرأ سورة الواقعة في كلّ ليلة، لم تصبه فاقة أبداً»[3].

---

(١) بصائر ذوي التميز للفيروزآبادي ١/٤٥١.

(٢) المصدر نفسه، الموضع نفسه.

(٣) في شهاب البيضاوي: «هذا ليس بموضوع وقد رواه البيهقي وغيره».

ترابط الآيات في سورة «الواقعة»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة «الواقعة» بعد سورة «طه»، ونزلت سورة «طه» فيما بين الهجرة الى الحبشة والإسراء، فيكون نزول سورة «الواقعة» في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى في أولها: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴿١﴾﴾ وتبلغ آياتها ستاً وتسعين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة: تفصيل جزاء المؤمنين والكافرين في يوم القيامة، فهي من باب الدعوة بطريق الترغيب والترهيب، وبهذا تكون مناسِبةً للسُّور التي ذكرت قبلها في هذا الغرض؛ وهذا إلى أن سورة الرحمن قد اشتملت على تعداد النعم، ومطالبة الإنسان بالشكر عليها، ومنعه من جحدها، فجاءت سورة الواقعة بعدها، لبيان جزاء الشاكرين للنعم، والجاحدين لها.

تفصيل الجزاء الأخروي
الآيات [١ ـ ٩٦]

قال الله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴿٢﴾﴾ فذكر سبحانه أنه اذا قامت القيامة لا يكذِّبها أحد، وأنّها تَخْفِضُ قوماً وترفع آخرين. ثم ذكر تعالى أنها اذا وقعت، ترجُ الأرض

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفني في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرخ.

رَجّاً، وتُبَسُّ الجبال بَسّاً، ويكون الناس ثلاثة أصناف: أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، والسّابقون من أصحاب الميمنة، لأنّ أصحاب الميمنة على درجات، والسّابقون أعلاهم، وهم جماعة كثيرة من المهاجرين والأنصار وجماعة قليلة من التّابعين، ومَنْ بعدهم؛ ثم ذكر جلّ شأنه ما أعد لهم من الجزاء، وذكر بعده جزاء أصحاب اليمين ممّن لم يصل الى درجة السابقين، وذكر بعد جزائهم جزاء أصحاب الشمال، وأن سببه أنه أترفهم بنعمه، فكفروا به، وأنكروا أن يبعثهم بعد أن يصيروا تراباً وعظاماً. وأجاب سبحانه عن هذه بأنه لا بدّ من جمعهم بعد موتهم، ولا بدّ من عقابهم على كفرهم، بالأكل من شجر الزّقّوم، إلى غير هذا مما أعدّه لهم، ثم ذكر من آياته ما يدل على قدرته على بعثهم، فذكر أنه خلقهم من تلك النُّطفِ التي لا يمكنهم أن يزعموا أنهم الخالقون لها، وأنّه قدّر بينهم الموت، وليس بمسبوق عاجز عن إعادتهم في ما لا يعلمون من الأوصاف والأخلاق؛ ثم ذكر جلّ وعلا أنه هو الذي يخرج نبات ما يحرثون، وأنه هو الذي ينزل من المُزْن الماء الذي يشربون، وأنه هو الذي أنشأ الشجرة التي يقدحون النار منها، وقد جعلها تَذْكِرَةً لنار يوم القيامة، ومتاعاً لمن يوقدها: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (٧٣)﴾.

ثم أمر النبي (ص) أن يقوم بتسبيحه ليخالف طريق أولئك الكافرين، وأقسم لهم بمواقع النجوم، أن ما ينزله عليهم في ذلك قرآن كريم، يراد به خيرهم، ثم وبّخهم على تكذيبهم له، فيما حدّثهم به من تفصيل الجزاء الأخروي؛ وذكر أنه لو صح ما يزعمون، من أنه لا جزاء بعد الموت، لأمكنهم أن يُرجعوا أرواحهم إلى أبدانهم وقت خروجها، ليعوّقوا الجزاء الذي ينتظرهم؛ واذا لم يكن هذا في إمكانهم، فلا بد من ذلك الجزاء، ليلقى كل شخص ما يستحقه على عمله. فإن كان من المقربين (السّابقين)، ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩)﴾؛ وإن كان من أصحاب اليمين (غير السابقين) ﴿فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١)﴾؛ وإن كان من المكذّبين الضّالّين ﴿فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦)﴾.

أسرار ترتيب سورة «الواقعة»(*)

أقول: هذه السورة متآخية مع سورة الرحمن، في أن كلاً منهما في وصف القيامة، والجنة والنار. وانظر الى اتصال قوله تعالى هنا: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾﴾ بقوله سبحانه هناك: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ [الرحمن/٣٧]. ولهذا اقتصر في «الرحمن» على ذكر انشقاق السماء، وفي «الواقعة» على ذكر رجّ الأرض[١]. فكأن السورتين، لتلازمهما واتحادهما، سورة واحدة.

ولهذا عُكِس الترتيب: فذُكِرَ في أول هذه السورة ما ذُكِرَ في آخر تلك، وفي آخر هذه ما في أول تلك، كما أشرت إليه في سورة آل عمران مع سورة البقرة.

فافتتحت «الرحمن» بذكر القرآن، ثم ذكر الشمس والقمر، ثمّ ذكْر النبات، ثمّ خلق الإنسان، والجان مِنْ مارِجٍ مِنْ نار، ثمّ صفة القيامة، ثم صفة النّار، ثم صفة الجنة.

وابتدئت هذه بذكْر القيامة ثمّ صفة الجنة، ثمّ صفة النار، ثمّ خلق الإنسان، ثمّ النبات، ثمّ الماء، ثمّ النار، ثمّ النجوم، ولم تُذكر في «الرحمن»، كما لم تُذكر هنا الشمس والقمر، ثم ذُكِرَ القرآن.

فكانت هذه السورة كالمقابِلة لتلك.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾﴾.

مكنونات سورة «الواقعة»[*]

١ ـ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾.

قال محمّد بن كعب: هم الأنبياء.

زاد مُجاهد: وأتباعُهُم.

وقال ابن عبّاس: يوشَعُ بنُ نون سَبَق إلى موسى، ومؤمن آل ياسين سبق إلى عيسى، وعلي بنُ أبي طالب سبق إلى النبي (ص).

أخرج ذلك ابنُ أبي حاتم[١].

٢ ـ ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ٦١﴾.

قال بَعْضُهم: في حواصل طَيْر سُودٍ تكون بِبَرَهُوت[٢] كأنها الزَّرازير[٣]، أخرجه ابنُ أبي حاتم.

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُعْتَرك الأقران في مُبْهمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) وروى الطبري ٢٧/٩٩ عن ابن سيرين: أنهم الذين صلّوا للقبلتين. وعن عثمان بن أبي سودة: أنهم أوّلهم رواحاً الى المساجد، وأسرعهم خُفوفاً في سبيل الله.

(٢) برهوت: واد أو بئر بحضرموت. «القاموس المحيط».

(٣) الزرازير: جمع زُرْزور، وهو نوع من العصافير.

لغة التنزيل في سورة «الواقعة»(*)

١ ـ قال تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ⑲﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾، أي: لا يأخذهم من شربها صُداع، وقيل: لا يتفرّقون عنها.

و ﴿وَلَا يُنزِفُونَ ⑲﴾، أي: لا يَسكَرون.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ⑥٥﴾.

وقوله تعالى: ﴿تَفَكَّهُونَ ⑥٥﴾، أي: تعجبون.

وعن الحسن: تندمون على تعبكم فيه، وإنفاقكم عليه، أو على ما اقترفتم من المعاصي، التي أصبتم بذلك من أجلها.

وقُرئ (يتفكّهون)، أي: يتندّمون.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ⑦٣﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِّلْمُقْوِينَ ⑦٣﴾ أي: الذين ينزلون القَواءَ وهي القَفْرُ.

وقيل: الذين خَلَتْ بطونهم أو مَزاوِدُهم من الطعام.

ويقال: أقْوَيْتُ من أيام، أي: لم آكل شيئاً.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ⑦٥﴾.

والمعنى فأقسِمُ، و«لا» زائدة: وهي كقوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد/ ٢٩]. والزيادة للتوكيد.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

٥ ـ وقال تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾.

أي: متهاونون به، كمن يُدهِن في الأمر، أي: يُلين جانبه، ولا يتصلّب فيه، تهاوناً به.

٦ ـ وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾.

أي: بلَغَت النفسُ، وإضمار الفاعل هو لمعرفته واشتهاره.

المعاني اللغوية في سورة «الواقعة»(*)

قال تعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾﴾. فقوله تعالى: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾﴾ وقوله جلّ وعلا: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾﴾ هو الخبر. تقول العرب: «زيد وَمَا زيدٌ» تريد «زيد شَديدٌ».

وقال تعالى: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ إن شئت نصبت السلام بالقيل، وإن شئت جعلت السلام عطفاً على القيل، كأنه تفسير له، وإن شئت جعلت الفعل يعمل في السلام، تريد «لا تسمع إلاّ قيلاً الخير»، تريد: إلاّ أنّهم يقولون الخيرَ، والسلام هو الخير.

وقال تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾ على المدح، بنصبه على الحال، كأنّ السّياق: «لَهُمْ هَذَا مُتَّكِئِينَ».

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾ بإضمارهنّ مِنْ غير أنْ يُذْكَرْنَ قبل ذاك[1]. وأمّا (الأترابُ) فواحدهنَ «التِرْب» وللمؤنّث: «التِرْبَة» هي «تِرْبي» وهي «تِرْبَتي» مثل «شِبْه» و«أشباه» و«التِرْبُ» و«التِرْبَةُ» جائزة في المؤنث، ويجمع: بـ «الأتراب»، كما تقول «حَيّةٌ» و«أحياء»، اذا عنيت المرأة و«مَيْتَةٌ» و«أمواتٌ».

وقال تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ.

(١) نقله في المشكل ٢/ ٧١٢ وإعراب القرآن ٣/ ١٢٢٧.

﴿ٱلْبُطُونَ۝٥٣﴾، أي: من الشجرة: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ﴾ [الآية ٥٤] لأنّ «الشجر» يؤنث ويذكّر. والتأنيث حَمْلٌ على «الشجرة»، لأن «الشجرة» قد تدل على الجميع، تقول العرب: «نَبَتَتْ قِبلَنا شَجَرةٌ مُرَّةٌ وَبَقْلَةٌ رَدِيَّةٌ» وهم يعنون الجميع.

قال تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ﴾ [الآية ٥٥] و(شَرْبَ)[1] مثل «الضُّعْف» و«الضَّعْف».

وقال تعالى: ﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ۝٧٣﴾ أي للمسافرين في الأرض القِيّ[2]. تقول: «أقوَى الشيءُ» إذا ذَهب كلُّ ما فيه.

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ۝٨٣﴾ ثم قال سبحانه: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ۝٨٦﴾ أي: غيرَ مَجزِيِّينَ مقهورين، تُرجعون تلك النفس، وأنتم ترون كيف تخرج عند ذلك: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ۝٨٧﴾ أنكم تمتنعون من الموت. ثم أخبرهم سبحانه فقال: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ أي: فله رَوْحٌ ورَيحانٌ» ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ۝٩١﴾ أي: فيقال له: «سَلامٌ لَكَ».

وقال تعالى: ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ۝٩٥﴾ بإضافة «حق» الى «اليقين» كما في قوله تعالى ﴿دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ۝٥﴾ [البيّنة] أي: ذلك دينُ المِلّةِ القَيِّمَةِ، وذلك حقُّ الأمرِ اليَقينِ. وأما «هذا رَجُلُ السَّوْءِ» فلا يكون فيه: هذا الرجلُ السَّوْءُ. كما يكون في «الحقُّ اليَقِينُ» لأن «السَّوْءَ» ليس بـ «الرَّجُلِ» و«اليَقينُ هُوَ الحَقُّ».

(١) نسبها في معاني القرآن ٣/ ١٢٨ الى ابن جريج، وفي الطبري ٣٧/ ١٩٥ إلى بعض قرّاء مكة والبصرة والشام؛ وفي السبعة ٦٢٣ إلى ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر والكِسائي، وفي الكشف ٢/ ٣٠٥، والتيسير ٢٠٧، والجامع ١٧/ ٢١٤، إلى غير نافع وحمزة وعاصم.

في معاني القرآن ٣/ ١٢٨ إلى سائر القراء، وفي الطبري ٢٧/ ١٩٥ إلى عامة قراء المدينة والكوفة، وفي السبعة ٦٢٣، والكشف ٢/ ٢٠٥، والتيسير ٢٠٧، والجامع ١٧/ ٢١٤، والبحر ٢١٠، إلى نافع وعاصم وحمزة.

(٢) الأرضُ القِيُّ: الأرض المستوية الملساء.

لكل سؤال جواب في سورة «الواقعة»(*)

إن قيل: ما الحكمة من التكرار في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾؟

قلنا: فيه وجهان: أحدهما أنه تأكيد مقابل لما سبقه من التأكيد في قوله تعالى: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝٩﴾. كأنه قال تعالى: والسابقون هم المعروفُ حالهم، المشهور وصفهم. ونظيره قول أبي النجم: «أنا أبوُ النَّجْمِ وشِعْري شِعِري». الثاني: أنّ معناه: والسابقون إلى طاعة الله، هم السابقون إلى جنته وكرامته، ثم قيل المراد بهم السابقون إلى الإيمان من كلّ أمّة، وقيل الذين صَلّوْا الى القبلتين، وقيل أهل القرآن، وقيل السابقون الى المساجد، وقيل السابقون الى الخروج في سبيل الله، وقيل هم الأنبياء صلوات الله عليهم، فهذه خمسة أقوال.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧﴾، مع أن التخليد ليس صفة مخصوصة بالوِلْدان في الجنة، بل كلّ أهل الجنة مخلّدون فيها، لا يشيبون ولا يهرمون، بل يبقى كلّ واحد أبداً على صفته التي دخل الجنة عليها؟

قلنا: معناه أنّهم لا يتحوّلون عن شكل الولدان. وقيل مُقَرْطون. وقيل مسوّرون، ولا إشكال على هذين القولين.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ۝٥٢ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ۝٥٣

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرخ.

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ۝٥٤﴾ بتأنيث ضمير الشجر ثم تذكيره؟

قلنا: قد سبق جوابه في سورة القمر.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧﴾ أي فهلا تصدّقون، مع أنهم مصدّقون أنه خلقهم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [الزخرف/ ٨٧]؟

قلنا: هم، وإن كانوا مصدّقين بألسنتهم، إلا أنهم لمّا كان مذهبهم على خلاف ما يقتضيه التصديق، فكأنهم مكذّبون به. الثاني: أنه تخصيص على التصديق بالبعث بعد الموت، بالاستدلال بالخلق الأول، فكأنه تعالى قال: هو الذي خلقكم أوّلاً باعترافكم، فلا يمتنع عليه أن يعيدكم ثانياً، فهلاّ تصدّقون بذلك؟

فإن قيل: لِمَ قال تعالى في الزرع: ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا﴾ [الآية ٦٥]، «باللام» وقال تعالى في الماء: ﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا﴾ [الآية ٧٠] بغير لام؟

قلنا: الأصل، لغةً، أن تذكر اللام في الموضعين، إذ لا بد منها في جواب «لو»، إلاّ أنها حذفت في الثاني اختصاراً، وهي مؤدّية لدلالة الأولى عليها. الثاني: أن أصل هذه اللام للتأكيد، فذكرت مع المطعوم دون المشروب، لأنّ المطعوم مقدّم وجوداً ورتبة، لأنه إنما يُحتاج الى الماء تَبَعاً له، ولهذا قدّمت آية المطعوم على آية المشروب؛ فلما كان الوعيد بفقد المطعوم أشدّ وأصعب، أُكّدت تلك الجملة مبالغة في التهديد.

فإن قيل: التسبيح: التنزيه عن السوء، فما معنى ﴿بِٱسۡمِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٧٤﴾ لِمَ لَمْ يقل تعالى: «فسبح ربك العظيم»؟

قلنا: فيه وجوه: أحدها: أنّ الباء زائدة، والاسم بمعنى الذات، فصار المعنى ما قلتم. الثاني: أنّ الاسم بمعنى الذّكر، فمعناه فسبح بِذِكْر ربك. الثالث: أن الذّكر فيه مضمر، فمعناه فأَحْدِثِ التسبيح بذكر اسم ربك. الرابع: قال الضّحاك: معناه فصلّ باسم ربك: أي افتتح الصلاة بالتكبير.

فإن قيل: إذا كان القرآن صفة من صفات الله تعالى، قديمة قائمة بذاته المقدّسة، فلِمَ قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ

﴿كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ۝٧٨﴾ أي اللوح المحفوظ، أو المصحف على اختلاف القولين؟

قلنا: معناه مكتوب في كتاب مكنون، ولا يلزم، من كتابة القرآن في الكتاب، أن يكون القرآن حالاً في الكتاب، كما لو كتب إنسان على كفه: «ألفُ دينار»، لا يلزم منه وجود ألف دينار في كفّه، وكذا لو كتب في كفّه العرش أو الكرسي، وكذا وكذا، قال تعالى في صفة النبي (ص): ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف/١٥٧]. الثاني: أن القرآن لو كان حالاً في المصحف، فإما أن يكون جميعه حالاً في مصحف واحد، أو في كلّ مصحف، أو في بعضه؛ ولا سبيل إلى الأول، لأن المصاحف كلّها سواء في الحكم في كتابته فيها، ولأنّ البعض ليس أولى بذلك من البعض؛ ولا سبيل إلى الثاني، وإلاّ يلزم تعدّد القرآن، وإنّه متّحد؛ ولا سبيل الى الثالث، لأنّه كلّه مكتوب في كلّ مصحف، ولأنّ هذا المصحف ليس أَوْلى بهذا البعض من ذلك المصحف؛ وكذا الباقي، فثبت أنه ليس حالاً في شيء منها، بل هو كلام الله تعالى، وكلامه صفة قديمة قائمة به سبحانه لا تفارقه.

فإن قيل: فإذا لم تفارقه، فَلِمَ سمّاه تعالى مُنْزلاً وتنزيلاً، وقال سبحانه ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣﴾ [الشعراء] ونظائره كثيرة، واذا فارقه، وباينه، يكون مخلوقاً، لأنّ كل مباين له فهو غيره، وكلّ ما هو غيره هو مخلوق؟

قلنا: معنى إنزاله أنه، سبحانه وتعالى، علّمه لجبريل فحفظه، وأمره أن يعلّمه للنبي(ص) ويأمره أن يعلّمه لأمّته، مع أنه لم يزل، ولا يزال، صفة الله تعالى، قائمة به لا تفارقه.

المعاني المجازية في سورة «الواقعة»(*)

في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ⦗٢⦘﴾ استعارة. والمراد أنها إذا وقعت لم تَرْجِعْ عن وقوعها، ولم تَعْدِلْ عن طريقها، كما يقولون: قد صَدَقَ فلانٌ الحَملَةَ ولم يَكْذِبْ. أي ولم يَرْجِعْ على عَقِبِه، ويقف عن وجهة عزمه جُبْناً وضُعفاً، أو وَجَلاً وخَوْفاً.

وكاذبة هُهنا مصدرٌ، كقولك: عافاه الله عافية، فيكون كَذَبَ كَذِباً وكاذبةً. وتلخيص المعنى: ليس لوقعتها كَذِبٌ ولا خُلْفٌ. وقيل أيضاً: ليس لها قضيّة كاذبة، لإخبار الله سبحانه بها، وقيام الدلائل عليها، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مُقامَهُ..

وذلك في كلامهم أظهرُ مِنْ أن يُتعاطى بيانُهُ.

وقيل أيضاً: ليس لها نفسٌ كاذبة في الخبر عنها، والإعلامِ بوقوعها. والمعنيان واحد.

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

سورة الحَديد

٥٧

أهداف سورة «الحديد»(*)

سورة «الحديد» سورة مدنية آياتها ٢٩ آية، نزلت بعد سورة «الزَّلْزَلة».

مطلع السورة

بدأت السورة ببيان قدرة الله العلي القدير، فهو الخالق الرازق مالك الملك، ذو الجلال والاكرام. وهو سبحانه أولٌ بلا ابتداء، وآخِرٌ بلا انتهاء، وظاهرٌ في كلّ ما تراه العين من سماء وأرض وجبال وبحار، وباطنٌ فلا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار. وهو خالق الكون كلّه، القائم على حفظه، المهيمن على جميع أمره، المطّلع على خفايا النفوس، المحاسِب على القليل والكثير، المجازي على الفتيل والقِطْمِير.

«ولما كان مدار السورة على تحقيق الإيمان في القلب، وما ينبثق عن هذه الحقيقة من خشوعٍ وتقوى، ومن خلوصٍ وتجرّد، ومن بذلٍ وتضحية، فقد سارت في إقرار هذه الحقيقة في النفوس على نسقٍ مؤثّر، أشبهَ ما يكون بنسق السور المكّية، حافلٍ بالمؤثرات، ذات الايقاع الآسر، للقلب والحس والمشاعر.

«وكان مطلعها خاصة مجموعة إيقاعات بالغة التأثير، تواجه القلب البشري بمجموعة من صفات الله سبحانه، فيها تعريف به مع الإيحاء الآسر بالخلوص له، نتيجة للشعور بحقيقة الألوهية المتفرّدة، وسيطرتها المطلقة على الوجود، ورجعة كل شيء

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

إليها في نهاية المطاف، مع نفاذ علمها إلى خبايا القلوب وذوات الصدور»[1].

أدلة التوحيد

الآيات الأولى من السورة [١ ـ ٦] يمكن أن تكون عناصر لأدلة التوحيد وصفات الله العلي القدير. فكل شيء في الكون يتجه إليه وحده سبحانه بالعبادة، ويعلن خضوعه وانقياده لقدرة الله، فالسماء مرفوعة، والأرض مبسوطة، والبحار جارية، والهواء مسخر، والشمس مسيَّرة، والقمر باهر، والكوكب زاهر، وكلّ شيء في مداره يسير، معلناً قدرة القدير، مسبِّحاً بلسان الحال، مظهراً لله العبادة والخضوع.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾.

والقلب يهتزّ عند قراءة هذه الآيات وما بعدها، يهتزّ من جلال القدرة الإلهية، المؤثرة المبدعة لكل شيء، المحيطة بكلّ شيء، المهيمنة على كلّ شيء، العليمة بكلّ شيء.

يهتزّ إجلالاً للخالق، القادر، العليم، الخبير، المطّلع على خفايا الصدور؛ يهتزّ القلب حين يجول في الوجود كله، فلا يجد إلا الله، ولا يرى إلا الله، ولا يحسّ غير الله، ولا يعلم له مهرباً من قدرته، ولا مخبأ من علمه، ولا مرجعاً إلاّ إليه، ولا متوجَّهاً إلاّ لوجهه الكريم.

تثبيت الايمان

الآيات [٧ ـ ١١] دعوة الى صدق الإيمان وتأكيده، وحث على الإنفاق في سبيل الله.

وظاهر من سياق السورة، أنها كانت تعالج حالة في المجتمع المدني في فترة تمتد من العام الرابع الهجري، الى ما بَعْدَ فتح مكة؛ فإلى جانب المهاجرين والأنصار، الذين ضربوا أروع الأمثال في تحقيق الإيمان، وفي البذل والتضحية بأرواحهم وأموالهم في إخلاص نادر، وتجرّد كامل. إلى جانب هذه الفئة الممتازة الفذّة، كانت

(١) في ظلال القرآن ٢٧/ ١٥١.

هناك في الجماعة الاسلامية فئة أخرى، يصعب عليها البذل في سبيل الله، وتَشُقُّ عليها تكاليف العقيدة في النفس والمال، وتزدهيها قيم الحياة الدنيا وزينتها، فلا تستطيع الخلاص من دعوتها وإغرائها.

وهؤلاء بصفة خاصة، نجد هذه الآيات تدعوهم إلى الإيمان وتحثهم عليه، وتهتف بهم تلك الهتافات الموحية، لتخلّص أرواحهم من الإغراء، والخلود الى الأرض، وترفعها إلى مستوى الإيمان الحقّ، فيخاطبهم القرآن الكريم بقوله جلّ وعلا: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨﴾.

مشاهد الآخرة

تَعرِض الآيات [١٢ ـ ١٥] صورةً وَضيئةً للمؤمنين والمؤمنات يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ [الآية ١٢]. والمشهد هنا جديد بين المشاهد القرآنية. إنه مشهد عجب. هؤلاء هم المؤمنون والمؤمنات نراهم، ولكننا نرى بين أيديهم وبأيمانهم إشعاعاً لطيفاً هادئاً. ذلك نورهم يشعّ منهم، ويفيض بين أيديهم. فهذه الشخوص الإنسانية قد أشرقت وأضاءت، وأشعّت نوراً يمتدّ منها فيرى أمامها ويرى عن يمينها. إنّه النور الذي أخرجها الله إليه، وبه، من الظلمات، والذي أشرق في أرواحها فغلت طينتها، أو لعلّه نور الأعمال الصالحة التي عملتها في الدنيا، ثم تبشّرهم ملائكة الرحمن بجنّات تجري من تحتها الأنهار ينعمون فيها بالخلود والفوز العظيم.

ولكنّ المشهدَ لا ينتهي عند هذا المنظر الطريف اللطيف. إنّ هناك المنافقين والمنافقات، في حَيْرة وضلال، في مهانة وإهمال، وهم يتعلّقون بأذيال المؤمنين والمؤمنات، ويقولون لهم: أنظروا إلينا لنقتبس من نوركم؛ فيجيب المؤمنون إن النور، هنا، هو نور العمل الصالح، الذي عُمِلَ في الدنيا، فالدنيا عمل ولا حساب، والآخرة حساب ولا عمل، والجزاء الحقُّ هنا من جنس العمل، ولذلك يحال بين المؤمنين والكافرين، ويذهب المؤمنون الى الرحمة

والرضوان، ويذهب المنافقون إلى عذاب النار وبئس المصير.

القلوب الخاشعة

الربع الثاني من سورة الحديد يشتمل على الآيات [١٦ - ٢٩] وفيها دعوة المؤمنين، إلى أن تكون قلوبهم خاشعة قانتة، تهتزّ لآيات الله وما نزل من الحق، وتستجيب لنداء السماء، وتؤثر الآخرة على الدنيا، والباقية على الفانية.

ومضمون الآيات، كما نرى، امتداد لموضوع السورة الرئيسي: تحقيق الإيمان في النفس، حتّى ينبثق عنها البذل الخالص في سبيل الله.

ويُستهل هذا الرُبع برنّة عتاب من الله سبحانه للمؤمنين، الذين لم يصلوا إلى المرتبة السامية في الإيمان، وتلويح لهم بما كان من أهل الكتاب قبلهم من قسوة في القلوب وفسقٍ في الأعمال، وتحذير من هذا المآل الذي انتهى اليه أهل الكتاب بطول الأمد عليهم، مع إطماعهم في عون الله الذي يُحيي القلوب كما يحيي الأرض بعد موتها، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الآية/ ١٦].

وتتبع هذه الدعوة الى الخشوع والتقوى، دعوة تالية إلى إقراض الله قَرْضاً حسناً، مع بيان ما أعدّه الله لمن يقرضونه في الدنيا مِن العوض المضاعف والأجر الكريم [انظر الآيتين ١٨ و ١٩].

والآية ٢٠ رسم رائع، وميزان عادل، يضع قيم الدنيا كلّها في كفّة، وقيم الآخرة في كفّة، حيث تبدو قيم الأرض لعباً، خفيفة الوزن، وترجّح كفة الآخرة، ويبدو فيها الجِدّ الذي يستحقّ الاهتمام.

ومن ثَمّ تهتف الآية ٢١ بهم ليسابقوا إلى قيم الأخرى، في جنّةٍ عَرْضُها كعرض السماء والأرض أُعِدّتْ للمتقين.

والآيتان [٢٢ ـ ٢٣] كلام مفيد في الايمان بالقضاء والقدر؛ وبيان أن الأجل بيد الله جلّ جلاله، الذي خلق النفوس، وكتب أَجَلَها ورزقها، حتّى لا نُكثر الأسى على ما فاتنا، ولا نُكثر الفرح بما جاءنا، فالقلب الموصول بالله، ثابت في المحن، راضٍ في المِنَح.

وتعرض الآيات [٢٥ ـ ٢٧] طرفاً من تاريخ دعوة الله في الأرض، تبدو فيه وحدة المنهج واستقامة الطريق، وأن الذي يحيد عنه في كل عهد هم الفاسقون.

وفي الآية الأخيرة من السورة، هتاف ودعوة للمؤمنين لتقوى الله، وصدق الإيمان برسوله، وبذلك يعطيهم الله نصيبين من رحمته ويجعل لهم نوراً يمشون به ويغفر لهم، فضل الله ليس وقفاً على أهل الكتاب كما يزعمون، إنما هو بيد الله، سبحانه، يؤتيه من يشاء ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

وهكذا تبدو السورة من أولها الى آخرها مترابطة الحلقات، في خط واحدٍ ثابت، تتوالى إيقاعاتها على القلوب، منوّعة ومتشابهة، فيها من التكرار القدر اللازم، لتعميق أثر الايقاع في القلب، وطرقه وهو ساخن، وتلوين هذه المؤثرات أمام المخاطبين: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾.

«وبعد؛ فهذه السورة نموذج من النماذج القرآنية الواضحة، في خطاب القلوب البشرية، واستجاشتها بأسلوب عميق التأثير؛ وهي في بدئها وسياقها وختامها، وفي طريقة تناولها للموضوع وسيرها فيه جولة بعد جولة، هي في هذا درس بديع للدعاة، يعلّمهم كيف يخاطبون الناس، وكيف يوقظون الفطرة، وكيف يستحيون القلوب»[(١)].

قال الفيروزآبادي: «معظم مقصود السورة: الإشارة إلى تسبيح جملة المخلوقين والمخلوقات، في الأرض والسموات، وتنزيه الحقّ في الذات والصفات، وأمر المؤمنين بإنفاق النفقات والصدقات، وذكر حَيْرة المنافقين والمنافقات في ساحة القيامة، وبيان خسّة الدنيا وعزّ الجنّات، وتسلية الخلق عند هجوم النكبات والمصيبات»[(٢)] في قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ٢٢ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ٢٣﴾.

(١) في ظلال القرآن ٢٧/ ١٨٠.

(٢) بصائر ذوي التمييز للكتاب العزيز للفيروزآبادي ١/ ٤٥٣.

ترابط الآيات في سورة «الحديد» (*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة «الحديد» بعد سورة «الزَّلْزَلة»، ونزلت سورة «الزلزلة» بعد سورة «النساء»، وكان نزول سورة «النساء» فيما بين صلح الحُدَيْبِيَة وغزوة تَبُوك، فيكون نزول سورة «الحديد» في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سمّيت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى في الآية ٢٥ منها: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ وتبلغ آياتها تسعاً وعشرين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله، والإنفاق في سبيله؛ وقد ذكرت هذه السورة بعد السورة السابقة، لأنها خُتمت بأمر النبي (ص) بتسبيح ربّه العظيم، فجاءت هذه السورة بعدها، وأوّلها في بيان أنّ كل ما في السماوات والأرض يسبّح بحمده.

الدعوة إلى الإيمان والإنفاق في سبيله
الآيات [١ ـ ٢٩]

قال الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١)﴾ فذكر، سبحانه، أن كل ذلك يسبّح بحمده، وأنّ له ملكه، وأنّه يُحيي ويُميت، إلى غير هذا ممّا يوجب

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز ـ المطبعة النموذجية بالحكمة الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

الإيمان به جلّ شأنه وبرسوله محمد (ص). وذَكَر أن رسوله إنما يدعوهم ليؤمنوا به، وقد أخذ ميثاقهم بهذا منذ خلَقهم، وأنه جاءهم بكتاب ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ثم دعاهم إلى الإنفاق في سبيله، وفضّل من أنفق وقاتلَ قبل الفتح، على من أنفق وقاتل بعده، ووعد من يُنفق في سبيله بأن يضاعفه له يوم القيامة، ويكون لهم فيها نورٌ يسعى بين أيديهم وبأيمانهم؛ ويقول المنافقون والمنافقات ممّن لم ينفقوا في سبيله للذين آمنوا أو أنفقوا انظروا لنقتبس من نوركم، فيقال لهم: ارجعوا وراءكم، ويحال بينهم وبينهم؛ إلى غير هذا من التحاور الذي يجري بينهم في ذلك اليوم؛ ثم ذكر تعالى أنه حان للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل، فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم، ثمّ ذكر من آياته جلّ وعلا أنه يحيي الأرض بعد موتها، لتخشع قلوبهم له، ورغّبهم في الإيمان به وبرسله، بأنّ الذين آمنوا به سبحانه، وبرسله، هم الصّديقون والشهداء، ولهم أجرهم ونورهم، والذين كفروا وكذّبوا بآياته هم أصحاب الجحيم، ثم هوّن لهم أمر الحياة الدنيا فذكر عزّ وجلّ أنها لعِبٌ ولهوٌ إلى غير هذا مما هوّن به أمرها، وأمرهم أن يسابقوا إلى ماهو أعظم منها من نيل مغفرته وجنّته؛ ثم ذكر أنّ ما يصيبهم في الأرض من قَحْط ونحوه، وفي أنفسهم من شرٍّ أو خير، فبقضائه وقدره. فلا يصحّ أن يحزنوا على ما فاتهم أو يفرحوا بما آتاهم، ليهوّن عليهم الإنفاق والجهاد في سبيله، ويحذّرهم من البخل والأمر به، ثم أشارت الآيات إلى أنّ ما يأمرهم به تعالى من ذلك، هو الذي أرسل به رسله بالبيّنات، وأنزل معهم الكتاب والميزان، ليقوم الناس بالقسط، وأنزل الحديد فيه بأس شديد، ومنافع للناس، وليعلم من ينصره ورسله بالجهاد به في سبيله؛ وذكر سبحانه من أولئك الرسل نوحاً وإبراهيم (ع) وأنه جعل في ذرّيتهما النبوّة والكتاب، ثم قَفّى على آثارهم برسله، وقفى بعدهم بعيسى ابن مريم (ع)، فأخذ بهدايتهم قليل من أتباعهم، وفَسَقَ كثيرٌ منهم؛ ثم أمر هذه الأمّة أن تؤمن بالله ورسوله، الذي جاء

مُصدّقاً لأولئك الرسل، وذكر أنه يعطيهم نصيبين من رحمته بإيمانهم برسالتهم ورسالة أهل الكتاب قبلهم؛ ثم رغبهم في ذلك بأنهم ينالون به فضلاً، يرى أهل الكتاب أنه خاص بهم، فقال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

أسرار ترتيب سورة «الحديد»(*)

قال بعضهم: وجه اتصالها بسورة «الواقعة»: أنها قُدمِّت بذكر التسبيح، وتلك خُتمت بالأمر به.

قلت: وتمامه: أن أوَّلَ «الحديد» واقع العلة للأمر به، وكأنه سبحانه قال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الواقعة] لأنه ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الآية/ ١].

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

مكنونات سورة «الحديد»(*)

١ ـ ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ [الآية ١٣].

قال مُجاهِد: هو الحجاب الذي في سورة الأعراف(١).

وقال قَتادة: حائط بين الجنّة والنّار. أخرجهما ابنُ أبي حاتِم(٢).

٢ ـ ﴿الْغَرُورُ ۝﴾.

هو الشيطان.

٣ ـ ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ [الآية ٢٧].

قال ابن حزم: وهو النبي (ص) أخرجه ابنُ أبي حاتم.

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِماتِ الأقران في مُبْهمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) المذكور في قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ [الأعراف/ ٤٦].

(٢) والطبري ٢٧ / ١٢٩.

لغة التنزيل في سورة «الحديد»(*)

١ ـ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الآية ١٣].

أقول: وقوله تعالى: ﴿ٱنظُرُونَا﴾ أي: انتظرونا.

وهذا يعني أن الثلاثي «نظر» يعني انتظر؛

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة/ ٢٨٠].

وقولهم:

إن غداً لناظره قريب.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [الآية ١٦].

وقوله تعالى: ﴿يَأْنِ﴾ من أنَى الأمرُ يأني إذا جاء إناه، أي: وقته.

وهذا بمعنى مقلوبه «آن»، أي «حان»، وهذا القلب في الأفعال قد ورد في جملة مواد منها: رأى وراء، وعثا وعاث.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الآية ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿ كِفْلَيْنِ﴾ أي نصيبين من رحمته لإيمانكم بمحمد(ص) وإيمانكم بمن قبله.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

المعاني اللغوية في سورة «الحديد»(*)

قال تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم﴾ [الآية ١٢]. يريد، والله أعلم، عَنْ أيمانِهِم كما قال سبحانه: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى/ ٤٥] أي «بطرف».

وقال تعالى: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الآية ١٣] من «نَظَرْتُه» أي «أنْظُرْهُ» ومعناه: أنْتَظِرْهُ.

وقال تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الآية ٢٢]. يريد، والله أعلم، «إلاّ هُوَ في كِتابٍ» فجاز فيها الإضمار. وقد تقول: «عِنْدِي هذا لَيسَ إلاّ» تريد: ليس إلاّ هُوَ.

وقال تعالى: ﴿بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌ﴾ [الآية ١٣] معناه: والله أعلم، «وَضُرِبَ بَيْنَهُم سُورٌ».

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾ بالاستغناء بالأخبار التي في القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ [الرعد/ ٣١] ولم يكن في ذا الموضع خبر، والله أعلم بما ينزل هو، كما أنزل، وكما أراد ان يكون.

وقال تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [الآية ٢٩]. يقول، والله أعلم: لأن يعلم.

وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الآية ١١] وليس هذا مثل

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

الاستقراض من الحاجة، ولكنه مثل قول العرب: «لي عِنْدَكَ قَرْضُ صِدْقٍ» و«قَرْضُ سَوْءٍ» إذا فعل به خيراً او شرّاً. قال الشاعر:

[من الطويل وهو الشاهد التاسع والستون بعد المئتين]:

سَأَجْزِي سَلامَانَ بنَ مُفْرِجَ قَرْضَهُم
بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهُمُ وأَزَلَّتِ

لكل سؤال جواب في سورة «الحديد»(*)

إن قيل: لم قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [الآية ٨] ثم قال سبحانه: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨﴾؟

قلنا: معناه إن كنتم مؤمنين بموسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، فإن شريعتهما تقتضي الإيمان بمحمد (ص). الثاني: إن كنتم مؤمنين بالميثاق الذي أخذه عليكم يوم أخرجكم من ظهر آدم (ع). الثالث: أن معناه: أيّ عذرٍ لكم في ترك الإيمان، والرسول يدعوكم إليه، ويتلو عليكم الكتاب الناطق بالبراهين والحجج، وقد ركّب الله تعالى فيكم العقول، ونصب لكم الأدلّة، ومكّنكم من النظر وأزاح عِلَلَكم، فما لكم لاتؤمنون إن كنتم مؤمنين بموجبٍ مّا، فإن هذا الموجب لا مزيد عليه.

فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ [الآية ١٠]، ولم يذكر مع من لا يستوي، والاستواء لا يكون إلا بذكر اثنين، كقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ [المائدة/ ١٠٠] و﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر/ ٢٠]؟

قلنا: هو محذوف تقديره: ومن أنفق وقاتل من بعد الفتح، وإنما حذف لدلالة ما بعده عليه.

فإن قيل: كيف يقال إن أعلى الدرجات بعد درجة الأنبياء درجة الصّدّيقين، والله تعالى قد حكم لكلّ مؤمن بكونه صدّيقاً، بقوله تعالى:

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الآية ١٩]؟

قلنا: قال ابن مسعود ومجاهد: كلّ مؤمن صِدّيق. الثاني: أنّ الصِّدّيق هو الكثير الصدق، وهو الذي كلّ أقواله وأفعاله وأحواله صدق، فعلى هذا يكون المراد به بعض المؤمنين لا كلّهم. وقد رُوي عن الضّحّاك أنّها نزلت في ثمانية نفر، سبقوا أهل الأرض في زمانهم إلى الإسلام وهم أبو بكر، وعثمان، وعلي، وحمزة بن عبد المطلب، وطلحة، والزبير، وسعد، وزيد؛ وألحق بهم عمر، رضي الله عنهم فصاروا تسعة.

فإن قيل: لم ذكر سبحانه هؤلاء المذكورين بكونهم شهداء، ومنهم من لم يُقتَل؟

قلنا: معناه أنّ لهم أجر الشهداء. الثاني: أنه جَمْعٌ بمعنى شاهِد، فمعناه أنهم شاهدوه عند ربّهم على أنفسهم بالإيمان. الثالث أنه مبتدأ منقطع عمّا قبله لا معطوف عليه؛ معناه: والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الآية ٢١] والمسابقة من المفاعلة التي لا تكون إلا بين اثنين كقولك: سابق زيدٌ عَمْراً؟

قلنا: قيل معناه سارعوا مسارعة المسابقين لأقرانهم في الميدان؛ ويؤيّد هذا القول مجيئه بلفظ المسارعة في سورة آل عمران(*). وقيل سابقوا ملك الموت، قبل أن يقطعكم بالموت، عن الأعمال التي توصلكم إلى الجنة؛ وقيل سابقو إبليس، قبل أن يَصُدُّكم بغروره وخداعه عن ذلك.

فإن قيل: لمَ قال تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الآية ٢١]. وقال تعالى في سورة آل عمران ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران/ ١٣٣] فكيف يكون عرضها كعرض السماء الواحدة، وكعرض السماوات السبع؟

قلنا المراد بالسماء جنس السماوات لا سماءٌ واحدة، كما أن المراد بالأرض في الآيتين جنس الأرضين، فصار التشبيه في الآيتين بعرض السماوات السبع، والأرضين السبع.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا

(*) إشارة إلى الآية الكريمة ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران/ ١٣٣].

﴿تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ [الآية ٢٣] ولا أحد يملك نفسه عند مضرة تناله أن لا يحزن، ولا عند منفعة تناله أن لا يفرح، وليرجع كل واحد منا في ذلك إلى نفسه؟

قلنا: ليس المراد بذلك الحزن والفرح اللذين لا ينفك عنهما الإنسان بطبعه قسراً وقهراً؛ بل المراد به الحزن المخرج لصاحبه، إلى الذهول عن الصبر والتسليم لأمر الله تعالى، ورجاء ثواب الصابرين، والفرح الطاغي المُلْهي عن الشكر، نعوذ بالله منهما.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الآية ٢٥] والميزان لم ينزل من السماء؟

قلنا قيل المراد بالميزان هنا العدل. وقيل العقل. وقيل السلسلة التي أنزلها الله تعالى، على داود (ع). وقيل هو الميزان المعروف، أنزله جبريل (ع) فدفعه إلى نوح (ع) وقال له: مُرْ قومك يَزِنُوا به.

فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ [الآية ٢٨]، مع أن المؤمنين مؤمنون برسوله (ص)؟

قلنا: معناه يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام، آمنوا بمحمد (ص) فيكون خطاباً لليهود والنصارى خاصة، وعليه الأكثرون. وقيل معناه: يا أيها الذين آمنوا، يوم الميثاق اتّقوا الله، وآمنوا برسوله اليوم. وقيل معناه: يا أيها الذين آمنوا بالله في العلانية باللسان، اتّقوا الله وآمنوا برسوله في السر بتصديق القلب.

المعاني المجازية في سورة «الحديد»(*)

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ استعارة عليه سبحانه، كإطلاقنا لذلك على غيره، لأنه سبحانه لا يأتي بالكلام المستعار، المجاز عليه، ولكن لأن ذلك اللفظ أبْعَدُ في البلاغة مَنْزعاً، وأبْهَرُ في الفصاحة مَطْلعاً.

والواحد منّا، في الأكثر، إنما يستعير أغلاق الكلام، ويَعْدِل عن الحقائق إلى المجازات، لأن طُرُق القول ربما ضاق بعضها عليه فخالف إلى[1] ... بقية الكلام وربما استَعْصى بعضها على فكرهِ فعَدَل إلى المطاوعة.

معنى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ أي الذي لم يَزَلْ قَبْل الأشياء كلها، لاعن انتهاء مدة، ﴿وَٱلْآخِرُ﴾ أي الذي لا يزال بَعْد الأشياء كلّها لا إلى انتهاء غاية.

﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ المتجلي للعقول بأدلّته، ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ أي الذي لا تدركه أبصار بَرِيّته.

وقال بعضهم: قد يجوز أن يكون معنى الظاهر هٰهنا أي العالم بالأشياء كلها. من قولهم: ظَهَرْتُ عَلى أمْر فلان أيْ عَلِمْتهُ. ويكون الظاهر مخصوصاً بما كان في الوجود والجَهْر، ويكون الباطنُ مخصوصاً بما كان في العَدَم والسر.

وتلخيص معنى الظاهر والباطن، أنه

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

(1) هنا لفظة غير واضحة.

العالم بما ظَهَرَ وَمَا بَطَن، بما اسْتَسَرَّ وما عَلَن.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الآية ١٠] استعارة على ما تقدم في كلامنا من نظير ذلك. والمعنى: أن الخلائق إذا فَنُوا وانقرضوا، خلّوا ما كانوا يسكُنُونه، وزالت أيديهم عما كانوا يملكونه(٢) إلاّ الله سبحانه، وصار تعالى كأنه قد ورث عنهم ما تركوه. . .(٢) خلفوه. لأنه الباقي بعد فنائهم، والدائم بعد انقضائهم.

وفي قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الآية ١٢] استعارة على أحد التأويلين.

وفي قوله سبحانه: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ استعارة. ومعنى مولاكم: أي أمْلَكُ بكم، وأوْلَى بأخذكم. وهذا بمعنى المولى من طريق الرِّق، لا المولى من جهة العتق. فكأنَّ النار، نعوذ بالله منها، تملكهم رقّاً، ولا تحرّرهم عتقاً.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ استعارة. ومعنى: بيد الله، أي مِلْك الله وقدرته، يبسُطُهُ إذا شاء على حَسَب المصالح والمفاسد، والمَغَاوِي والمَرَاشِد. وقد مضى الكلام على نظائرها.

---

(١) هنا ألفاظ ممحوّة.

(٢) هنا بضعة أسطر مبتورة الأطراف غير واضحة المعالم.

سورة المجادلة

٥٨

أهداف سورة «المجادلة»(*)

سورة «المجادلة» سورة مدنية وآياتها ٢٢ آية نزلت بعد سورة «المنافقون».

تربية إلهية

سورة «المجادلة»، حافلة بآداب التربية، وتهذيب السلوك، وتحذير المسلمين من مكايد المنافقين.

لقد نزلت هذه السورة بعد سورة «المنافقون»، وكانت الجماعة الإسلامية في المدينة لا تزال في دور الإعداد والتكوين، وكان المسلمون يتألفون من المهاجرين والأنصار؛ وقد انضمّ إليهم، مَنْ لم يَتَلَقَّ من التربية الاسلامية القَدْر الكافي، ومن لم يتنفس في الجو الإسلامي فترة طويلة، كما دخل في الاسلام جماعة من المنافقين، حرصوا على الاستفادة المادية وأخذوا يتربّصون بالمسلمين الدوائر، ويعرضون ولاءهم على المعسكرات المناوئة للمسلمين، وهي معسكرات المشركين واليهود.

وقد اقتضت تربية النفوس وإعدادُها للدور الكبير المقدر لها في الأرض، جهوداً ضخمة وصبراً طويلاً، وعلاجاً بطيئاً في صغار الأمور وكبارها.

ونحن نشهد في هذه السورة، وفي هذا الجزء كلّه، طرفاً من تلك الجهود الضخمة وطرفاً من الأسلوب القرآني كذلك في بناء تلك النفوس، وفي علاج الأحداث والعادات والنَّزَوات؛ كما نشهد جانباً من الصراع الطويل، بين الاسلام وخصومه المختلفين، من مشركين ويَهودٍ ومنافقين.

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

«ونشهد في سورة المجادلة، بصفة خاصة، صورة موحية من رعاية الله جلّ جلاله للجماعة الناشئة، وهو يصنعها على عينه، ويربيها بمنهجه، ويُشعرها برعايته، ويَبْني في ضميرها الشعور الحي بوجوده سبحانه معها، في أخصّ خصائصها، وأصغر شؤونها، وأخفى طواياها، وحراسته لها من كيد أعدائها، خَفِيَةً وظاهرة، وأخْذِها في حماه وكنفه، وضمّها الى لوائه وظلّه، وتربية أخلاقها وعاداتها وتقاليدها تربية تليق بالجماعة التى تنضوي إلى كنف الله، وتنتسب إليه، وترفع لواءه في الأرض»[1].

قصة المجادلة

سُمّيت سورة «المجادلة» بهذا الاسم لاشتمالها على قصة المرأة المُجادِلَة، وقد افتتح الله بها السورة حيث قال سبحانه: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾.

وقد روى الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود في كتاب الطلاق من سننه، عن خولة بنت ثعلبة قالت: فِيَّ والله وفي أوْس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة، قالت: كنت عنده، وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه، قالت: فدخل عليّ يوماً، فراجعته بشيء فغضب فقال، أنتِ عليّ كظهر أمي.

وكان الرجل، في الجاهلية، إذا قال ذلك لامرأته حُرّمت عليه؛ وكان ذلك أول ظِهار في الاسلام، فندم أوس لساعته ثم دعاها لنفسه (طلب ملامستها) فأبت وقالت: والذي نفسي بيده لا تصل إليّ وقد قلتَ ما قلت حتى يحكم الله ورسوله، فأتت الى رسول الله (ص) فقالت: يا رسول الله إنّ أوساً تزوّجني وأنا شابة غنية ذات أهل ومال، حتى اذا أكل مالي، وأفنى شبابي، وتفرّق أهلي، وكبرت سنّي ظاهر مِنّي، وقد ندم فهل من شيء تجمعني به وإياه تفتيني به؟ فقال صلوات الله وسلامه عليه: حرّمت عليه، أو ما أراكِ الاّ حرمتِ عليه. فأعادت الكرّة، والرسول عليه الصلاة والسلام يعيد عليها الجواب نفسه، حتى قالت: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي، قد طالت له صحبتي،

(١) في ظلال القرآن، بقلم سيّد قطب ٢٨/٨.

ونثرت له بطني، وإنّ له صِبْيَةً صغاراً، ان ضممتهم إليَّ جاعوا، وإن ضممتهم إليه ضاعوا؛ وجعلت ترفع رأسها الى السماء، وتستغيث وتتضرّع، وتشكو الى الله، فنزلت الآيات الأربع من صدر سورة المجادلة. فقال رسول الله (ص) يا خولة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآناً، ثم تلا عليها الآيات. وقال لها (ص) مُريه فليعتق رقبة، قالت يا رسول الله ليس عنده ما يعتق، قال فليصم شهرين متتابعين قالت والله إنه لشيخٌ مالَهُ مِنْ صيام، قال: فليطعم ستين مسكيناً وَسْقاً[1] من تمر، قالت: والله يا رسول الله ماذاك عنده، فقال رسول الله (ص): «فإنّا سنعينه بِعِرْقٍ من تمر». قالت: يا رسول الله وأنا سأعينه بعرق آخر. قال الرسول: «قد أصبتِ وأحسنتِ فاذهبي فتصدّقي به عنه ثم استوصي بابن عمك خيراً»، قالت: ففعلت.

تلك قصة الظّهار، وهي تشير الى رعاية السماء لهذه الجماعة المؤمنة، ونزول الوحي يجيب عن أسئلتها ويحلّ مشاكلها، ويربّي نفوسها، ويهذّب أخلاقها، ويأخذ بيدها إلى الصراط القويم. وقد تضمّنت الآيات، إحاطة السميع البصير بكل صغيرة وكبيرة، واطّلاعه على جميع الأعمال؛ وبينت أن المسارعة الى ألفاظ الظّهار والطلاق منكَرٌ وزُورٌ؛ وأنّ الزوجة غير الأم، فالأم حملت وأرضعت، وقد حرّم الله تعالى على الإنسان الزواج بأمه. والزوجة أحلّ الله زواجها.

ثم رسم القرآن الكريم طريق الحل لمن بدرت منه بادرة بالظّهار، فقال لامرأته أنت عليّ كظهر أمي، ثم أراد أن يرجع عن ذلك، وأن يراجع زوجته؛ فعليه أن يكفّر عن هذا الذنب، بتحرير رقبة؛ فإن لم يجد، فيصوم ستين يوماً، فإن لم يستطع، فعليه إطعام ستين مسكيناً؛ وفي ذلك نوع من التهذيب والتأديب، حتى يضبطَ الناس أعصابهم ويحفظوا ألسنتهم في ساعة الغضب والتهوّر.

أهداف السورة

تبدأ السورة بهذه البداية الكريمة، وهي سماع الله العليّ القدير، شكوى امرأة فقيرة مغمورة، وقد استمع إليها

(١) الوَسْق (بفتح الواو، وكسرها): بكَيْلَةٌ معروفة.

جلّ جلاله من فوق سبع سماوات، وكان صوتها ضعيفاً، لا يكاد يسمعه من يجلس بجوارها.

وفي البخاري والنسائي عن عائشة (رض) قالت: الحمد لله الذي وَسِعَ سَمْعُه الأصوات، لقد جاءت المجادلة خولة إلى رسول الله (ص) في جانب البيت ما أسمع ما تقول. فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الآية ١] الى آخر الآيات الأربع من صدر السورة.

وفي [الآيتين ٥ ـ ٦] توكيد أنّ الذين يُحادّون الله ورسوله، وهم أعداء الجماعة المسلمة التي تعيش في كنف الله، مكتوب عليهم الكبت والقهر في الأرض، والعذاب المهين في الآخرة، مأخوذون بما عملوا، أحصاه الله عليهم، ونَسُوه هم؛ وهم فاعلوه: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾.

و[الآية ٧] تؤكّد سعة علم الله سبحانه، وإحاطته بما في السموات والأرض، واطّلاعه على السّر والنّجوى، ورقابته لكلّ صغير وكبير، ثمّ محاسبة الجميع بما قدّموا يوم القيامة؛ والآية تُخرج هذه المعاني في صورة عميقة التأثير، تترك القلوب وَجِلَة، ترتعش مَرَّة وتأنس مَرَّة، وهي مأخوذة بمحضر الله الجليل: ﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

وفي [الآيات ٨ ـ ١٠] يُشهّر القرآن بموقف المنافقين، الذين يبيّتون الكيد والدسّ للمؤمنين، ويهدّدهم بأنّ أمرهم مكشوف وأن عين الله مطّلعة عليهم؛ ونجواهم بالإثم والعدوان، ومعصية الرسول مسجّلة، وسيحاسبون عليها، ويلقون جزاءهم، في جهنم وبئس المصير.

ثم تستطرد الآيات الى تربية المسلمين، وتهذيب نفوسهم بهذا الخصوص، فتنهاهم عن الحديث الخافت المحتوي على الإثم والعدوان، ومعصية الرسول (ص)؛ وذلك يؤكد أنه كان بين جماعة المسلمين قوم لم يترسّخ الإيمان في قلوبهم، وكانوا يقلّدون المنافقين، في التّناجي بالهَمْز واللَّمْز، والإثم والمعصية، وكان القرآن الكريم يواكب هؤلاء جميعاً، فيكشف المنافقين، ويُرشد المسلمين ويُنزل الهدى والرحمة أجمعين.

و[الآيات ١١ ـ ١٣] استطراد في

تربية المسلمين، وتعليمهم أدب السماحة والطاعة، في مجلس الرسول (ص) ومجالس العلم والذكر، وهو أدب رفيع قدّمه القرآن الكريم من عشرات القرون، ليحثّ الناس على التعاون، والتكافل، والسلوك المهذب: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا﴾. كما تحثّ الآيات على توفير العلم، وترسُم أدب السؤال والحديث، مع رسول الله (ص) وتحثّ على الجد والتوقير في هذا الأمر.

ويبدأ الربع الثاني في السورة بالآية ١٤، وقد تحدثت مع ما بعدها عن المنافقين، الذين يتولّون اليهود ويتآمرون معهم، ويدارون تآمرهم بالكذب والحلف للرسول وللمؤمنين. وهم في الآخرة كذلك حلاّفون كذّابون، يتقون بالحلف والكذب، ما يواجههم من عذاب الله، كما كانوا يتقون بهما في الدنيا، ما يواجههم من غضب رسول الله، والمؤمنين، مع توكيد أن الذين يحادّون الله ورسوله، كتب الله عليهم أنهم في الأذلّين، وأنهم هم الأخسرون، وأن الله ورسوله هم الغالبون.

وفي ختام السورة نجد صورة كريمة للمؤمن، الذي يستعلي بايمانه، ويجعل الإيمان هو النسب وهو الحياة، وهو العقيدة الغالية التي تصله بالمؤمنين والمسلمين، وتحجب مودّته عن أعداء الله، ولو كانوا أقرب الناس إليه.

وكذلك كان المهاجرون والأنصار، الذين ضحّوا بكلّ شيء في سبيل العقيدة، فكتب الله في قلوبهم الإيمان، وأيّدهم بروحٍ منه، وجعلهم قدوةً لكل فئة مخلصةٍ، ولكلّ مسلم مخلص، فمودّة المسلم، وحبه، وإخلاصه، وتعاونه، لا تكون إلاّ للمسلمين الصادقين؛ ثم هو في الوقت نفسه يحجب مودّته عن الخائنين، وإن كانوا أقاربه، أو أصهاره، أو عشيرته.

ومن سمات هذا الدّين، أن تحبّ لله وأن تكره لله: أن تُحبَّ المتقين، وتصل المؤمنين، وتتعاون مع الهداة الصالحين، وأن تحجب مودّتك عن الفاسقين، لأنك بهذا تنفّذ أمر الله عزّ وجلّ، وتهجر من عصى الله سبحانه؛ فمن أحبَّ من أحبَّ الله، فكأنما يحبُّ الله.

المقصد الإجمالي للسورة

قال الفيروزآبادي: «معظم مقصود

سورة المجادلة هو بيان حكم الظِّهار وذكْر النَّجوى والسِّرار، والأمر بالتوسّع في المجالس، وبيان فضل أهل العلم، والشكاية من المنافقين، والفرق بين حزب الرحمن وحزب الشيطان»(٣) والحكم على الأول بالفلاح، وعلى الثاني بالخسران. قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

(٣) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ١/٤٥٦.

ترابط الآيات في سورة «المجادلة»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة «المجادلة» بعد سورة «المنافقون»، ونزلت سورة «المنافقون» بعد غزوة بني المُصْطَلِق، في السنة الخامسة من الهجرة؛ فيكون نزول سورة «المجادلة»، فيما بين صلح الحُدَيْبِيَة وغزوة تَبُوكَ.

وقد سمِّيت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى في أولها: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [الآية ١] وتبلغ آياتها اثنتين وعشرين آية.

الغرض منها وترتيبها

نزلت هذه السورة في خولة بنت ثعلبة، امرأة أوْسِ بن الصامت؛ وكان قد ظاهَر منها بقوله، أنتِ عليَّ كظهر أمي، وكان الظِّهار من أشدّ طلاق الجاهلية، لأنّه في التحريم أوْكَد، فأتت النبي (ص) فقالت له: إنّ أوْساً تزوّجني وأنا شابّة مرغوب فيّ، فلمّا خلا سنّي وكَثُرَ ولدي جعلني كأمّه، وإنّ لي صِبْيَة صغاراً إنْ ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا. فروى بعضهم أن النبي (ص) قال لها: ما عندي في أمرك شيء. وروى بعضهم أنه قال لها: حُرِمت عليه. فقالت له: يا رسول الله، فاقتي ووجدي. فأنزل الله هذه السورة في تحريم الظّهار، وبيان حكمه، وأوْعَدَ، جلّ جلاله، من يخالف ذلك أشدّ وعيد؛ وقد ناسب هذا السياقَ الكلامُ

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز - المطبعة النموذجية بالحكمة الجديدة، القاهرة، غير مؤرخ.

على المنافقين، الذين يحادُّون الله ورسوله، لتحذيرهم من مخالفة ما جاء في الظّهار وغيره من الأحكام، ولتوبيخهم على ما يتناجَوْن به فيما بينهم، من الإثم والعدوان، ومعصية النبي (ص)؛ وبهذا تشارك هذه السورة سورة «الحديد»، في معالجتها أحوال أولئك المنافقين، ويكون ذكرها بعدها لهذه المناسبة.

بيان حكم الظهار
الآيات [١ ـ ٢٢]

قال الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١)﴾، فذكر أحكام الظّهار وختمها، بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤)﴾ ثم أوعد، جلّ وعلا، الذين يحادُّون في هذا ونحوه من المنافقين، بأنّه سبحانه سيخذلهم كما خذل أمثالهم من قبلهم، ولهم بعد هذا عذاب مهين، يوم يبعثهم فينبّئهم بما يكيدون به للإسلام في سرّهم، لأنه يعلم ما في السماوات والأرض، ولا يخفى عليه شيء مما يتناجى به الناس فيما بينهم.

ثم ذكر عزّ وجلّ أنه نبأهم عمّا يفعلونه في نجواهم، فعادوا إليها، وتناجَوْا بالإثم والعُدوان ومعصية النبي (ص)، فأعاد نهيهم عن هذه النَّجْوى الآثمة، وأمرهم أن يتناجوا بالبِرّ والتقوى، وأن يتأدّبوا في مجالسهم مع النبي (ص)؛ فإذا قيل لهم تفسّحوا فيها فَسَحُوا، وإذا قيل لهم انشُزُوا منها نَشَزُوا؛ ثمّ أمرهم سبحانه، إذا أرادوا مناجاة النبي(ص) بشيء، أن يقدّموا بين يَدي نجواه صدقة تطهّر قلوبهم، فلا يناجونه إلاّ بما فيه خير ومصلحة لهم، فإذا لم يجدوا ما يتصدّقون به لفقرهم، فإنه سبحانه يعفو عنهم، وإذا أشفقوا أن يتصدّقوا حِرْصاً على مالهم وتاب عليهم فلم يكلّفهم بذلك، فليحافظوا على ما وجب عليهم من الصلاة والزكاة ونحوهما، ولا يُفرِّطوا فيها كما فَرَّطوا في تلك الصدقة؛ ثم وبّخ أولئك المنافقين على موالاتهم لليهود الذين يؤلّبونهم على إخوانهم، وهم أجانب لا يريدون بهم خيراً؛ وذكر أنهم يوالونهم في السّر ويحلفون كذباً أنهم لا يوالونهم، وأوعدهم على ذلك بما أوعدهم به؛ إلى أن ختم السورة

بتحذير المؤمنين منهم فقال تعالى:
﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ
كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ
إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي
قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ
وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ
أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾.

أسرار ترتيب سورة «المجادلة»(*)

أقول: لما كان في مطلع «الحديد» ذكر صفاته الجليلة، ومنها: الظاهر والباطن، وقوله سبحانه في [الآية ٤] منها: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾، افتتح هذه بذكر أنه سبحانه سمع قول المجادِلَة التي شكت الى الرسول (ص) ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها، حين نزلت: «سبحان الذي وَسِعَ سَمْعُهُ الأصوات، إني لفي ناحية البيت لا أعرف ما تقول»(*).

وذكر بعد ذلك قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [الآية ٧]. وهو تفصيل لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد/ ٤].

وبذلك تعرف الحكمة في الفصل بها بين «الحديد» و«الحشر»، مع تآخيهما في الافتتاح بـ ﴿سَبَّحَ﴾.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

(*) أخرجه البخاري في التوحيد: ٩/ ١٤٤؛ وابن ماجة في المقدمة: ١/ ٦٧؛ والإمام أحمد في المسند: ٦/ ٤٦؛ وابن جرير في التفسير: ٢٨/ ٥، ٦.

مكنونات سورة «المجادلة»(*)

١ - ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ﴾ [الآية ١]

هي خَوْلَةُ بنتُ ثَعْلَبَة.

٢ - ﴿فِي زَوْجِهَا﴾ [الآية ١]

هو أوسُ بن الصامِت. كما في «المستدرك[1]» عن عائشة.

وعند ابن أبي حاتم عن أبي العالية: خولة بنت دُليج[2].

٣ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ﴾ [الآية ٨].

هُمُ اليَهُود. نهاهم النبي (ص) عمّا كانوا يفعلون في تناجيهم، «أي تَحدُّثهم» سِرّاً ناظرين إلى المؤمنين ليُوقِعُوا في قلوبهم الريبة.

٤ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا﴾ [الآية ١٤].

قال السُّدِّيّ: بَلَغَنا أنها نزلتْ في عبد الله بن نَبْتَل من المنافقين. أخرجه ابنُ أبي حاتِم.

٥ - ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ﴾ [الآية ٢٢].

أخرج ابنُ أبي حاتِم من طريق سعيد بن عبد العزيز، عن عمر بن الخطاب

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِماتِ الأقران في مُبْهَمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) ٢/ ٤٨١ للحاكم وصححه، وأقرّه الذهبي. ووقع في رواية قتادة عند الطبري ٢٨/ ٣: «خويلة». وقال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ١٣/ ٣٧٤: «وهذا يحمل على أن اسمها كان ربما صغّر».

(٢) قاله الحافظ في «فتح الباري» ١٣/ ٣٧٤.

قال: لو كان أبو عبيدة حيّاً لاستخلفته[1].

قال سعيد: وفيه أنزلت هذه الآية، حينما قتل أباه.

وأخرج عن ابن شَوْذب قال: نزلت في أبي عبيدة بن الجراح، حينما قَتَلَ أباه يوم بدر.

وقال ابن عَسْكَر: روى ابن فُطَيْس، عن ابن عبّاس، أنّ الآية عنى بها جماعة من الصحابة.

فقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾ [الآية ٢٢] يريد أبا عبيدة، لأنه قَتَل أباه يوم أحُد. ﴿أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [الآية ٢٢] يريد أبا بكر، لأنه دعى ابنه للبراز يوم بدر، فأمره رسول الله (ص) أن يقعد. ﴿أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ﴾ [الآية ٢٢] يريد مصعب بن عُمير، لأنه قتل أخاه أبا عزيز يوم أحُد. ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [الآية ٢٢] يريد عليّاً ونحوه ممن قتلوا عشائرهم.

(١) قال ذلك عمر، حينما جعل الأمر شورى بعده، في أولئك الستة رضي الله عنهم، كما في «تفسير ابن كثير» ٤/ ٣٢٩.

لغة التنزيل في سورة «المجادلة»(*)

١ ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الآية ٥].

وقوله تعالى: ﴿يُحَآدُّونَ﴾ أي: يُعادون ويُشاقّون.

أقول: الفعل «حادّ» على «فاعَلَ» والإدغام واجب جرت عليه العربية، فأما قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء/١١٥]، فقد فُكّ الإدغام فيه لحاجة صوتية يقتضيها حسنُ الأداء[1]، والله أعلم. وأما قوله تعالى: ﴿كُبِتُوا۟﴾ فمعناه: أُخزوا وأُهلكوا.

أقول: هذا معنى «الكبت» في لغة التنزيل، ولا أدري كيف أدرك المعاصرون من أصحاب علم النفس هذه المادة، فصنعوا منها مصطلحاً، هو «الكَبْت»، بمعنى أن الإنسان يكظم ويخفي من الأفكار والمعضلات والهموم، ما يدفعه إلى سلوك خاص أو تصرّف مشين.

والذي أراه في هذه الحال أن يلجأ إلى كلمة أخرى، هي «الزّمُّ» التي تفي بمعنى الإخفاء والكظم. . .

٢ ـ وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [الآية ٨].

أقول: «النجوى» هي المُسارّة، وتكون في الخير والشر، والمراد بها في الآية «النجوى» التي هي الإثم والكفر، ويدلّنا على ذلك الفعل في الآية الكريمة: ﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) على أنه ورد قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤﴾ [الحشر].

وإذا جئنا إلى الآية اللاحقة وجدنا قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [الآية ٩].

٣ - وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾ [الآية ١١].

وقوله تعالى: ﴿ٱنشُزُواْ﴾ أي: انهضوا.

أقول: كأنّ الفعل قد أُخذ من «النَّشز»، وهو ما ارتفع من الأرض، والناهض من مكانه كأنه يرتفع.

وعلى هذا قُرئ قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ [الملك]، بزاي معجمة.

كما جاء قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا﴾ [البقرة/ ٢٥٩].

٤ ـ وقال تعالى: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ﴾ [الآية ١٣].

وقوله تعالى: ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ﴾ استعارة ممّن له يدان.

والمعنى: قبل نجواكم، كقول عمر: من أفضل ما أوتيت العرب الشعر، يقدّمه الرجل أمام حاجته فيستمطر به الكريم، ويستنزل به اللئيم. يريد: قبل حاجته.

المعاني اللغوية في سورة «المجادلة»(*)

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾ [الآية٢] خفيفة، ومن ثقَّل جعلها من «تظهَّرَ» ثم أدغم التاء في الظاء.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [الآية ٣] المعنى: «فتحريرُ رَقَبَةٍ من قَبْلِ أنْ يَتماسَّا، فمن لم يَجِدْ فإطْعَامُ ستين مسكيناً، ثُمَّ يعُودونَ لِمَا قَالُوا[1]: «أنْ لا نَفْعَلَه» «فيفعَلُونَهُ» هذا الظِّهار، يقول «هِي عَلَيَّ كَظَهْرِ أمّي» وما أشبه هذا من الكلام، فاذا أعتق رقبةً أو أطعم ستين مسكيناً، عاد لهذا الذي قد قال: «إنَّهُ عَلَيَّ حَرامٌ» ففعله[2].

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) تسلسل الكلام في القرآن الكريم هو ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الآية ٣] ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾

(٢) نقله في المشكل ٢/ ٧٢١، والجامع ١٧/ ٢٨٢.

لكل سؤال جواب في سورة «المجادلة»(*)

إن قيل: لأي معنى خص الله تعالى الثلاثة والخمسة بالذكر في النَّجوى دون غيرهما من الأعداد في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ [الآية ٧]؟

قلنا: لأنّ قوماً من المنافقين، تخلّفوا للتّناجي على هذين العددين مغايَظةً للمؤمنين، فنزلت الآية على صفة حالهم، تعريضاً بهم، وتسميعاً لهم؛ وزِيدَ فيها ما يتناول كلّ متناجِيَيْن غير تَيْنِكَ الطائفتين، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ﴾ [الآية ٧].

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾؟

قلنا: فائدته الإخبار عن المنافقين أنّهم يحلفون على أنهم ماسبّوا رسول الله (ص) وأصحابه، مع اليهود، كاذبين متعمدين للكذب، فهي اليمين الغَمُوس(*)، فكان ذلك نهايةً في بيان ذمّهم.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

(*) اليمين الغموس: اليمين الكاذبة تغمس صاحبها في الإثم. يقال: غمُوس، وغموص.

المعاني المجازية في سورة «المجادلة»(*)

يقول تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [الآية ٧].

ظاهرُ هذا الكلام: محمول على المجاز والاتساع؛ لأنّ المراد به إحاطته تعالى بعِلم نجوى المتناجين، ومَعَاريض المتخافتين؛ فكأنّه سبحانه يعلم جميع ذلك، سامع للحوار، وشاهد للسّرَار.

ولو حُمل هذا الكلام على ظاهره لتناقضَ. ألا تَرَى أنه تعالى لو كان رابعاً لثلاثة في مكانٍ على معنى قول المخالفين، استحال أن يكون سادساً لخمسة في غير ذلك المكان إلاّ بعد أن يفارق المكان الأوّل، ويصير إلى المكان الثاني؛ فينتقل كما تنتقل الأجسام، ويجوز عليه الزوال، والمقام، تنزّه سبحانه عن هذا السياق، وهذا واضح بحمدالله وتوفيقه.

وفي قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ [الآية ١٢] استعارة. وقد مضت لها نظائر كثيرة.

والمراد بقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ﴾ أي أمام نجواكم، وذلك كقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف/٥٧] أي مطرقة أمام الغيث الوارد، ومبشّرة بالخير الوافد.

وفي قوله سبحانه: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الآية ١٦]

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

استعارة. والكلام وارد في شأن المنافقين.

والمراد أنهم جعلوا إظهار الإيمان الذي يبطنون ضدّه جُنّةً، يعتصمون بها ويستلئمون(*) فيها تعوُّذاً بظاهر الإسلام الذي يسَعُ مَن دخل فيه، ويعيذُ مَنْ تعوَّذ به.

وفي قوله سبحانه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾.

استعارة. والمراد بالكتابة هَهنا الحُكم والقضاءُ. وإنّما كَنى تعالى عن ذلك بالكتابة، مبالغة في وصف ذلك الحكم بالثبات، وأنّ بقاءه كبقاء المكتوبات.

وفي قوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ [الآية ٢٢] استعارتان، إحداهما قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾، ومعناه أنه ثبّته في قلوبهم، وقرّره في ضمائرهم، فصار كالكتابة الباقية، والرُّقوم الثابتة، على ما أشرنا إليه من الكلام على الاستعارة المتقدّمة. وذلك كقول القائل: هو أبقَى من النقش في الحَجَرِ، ومن النقْش في الزُّبُر.

والاستعارة الأخرى قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ ولذلك وجهان: إمّا أن يكون المراد بالروح هُهنا القرآن، لأنه حياة في الأديان، كما أنّ الروح حياة في الأبدان. وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشورى/٥٢] والمراد القرآن.

والوجه الآخر أنْ يكون الروح هُهنا معنى النّصر والغلبة والإظهارِ للدّولة. وقد يُعبّر عن ذلك بالريح. والرَّوْحُ والريحُ يرجعان إلى معنى واحد. وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال/٤٦] أي دولتكم واستظهارُكم.

(*) يستلئم: أي يلبس الدرع.

سورة الحَشر

٥٩

أهداف سورة «الحشر»(*)

سورة الحشر سورة مدنية، آياتها ٢٤ آية، نزلت بعد سورة البيّنة.

نزلت هذه السورة في بداية السنة الرابعة من الهجرة، بعد غزوة أُحُد، وقبل غزوة الأحزاب، وهي تحكي قصّة غزوة بني النضير، ولكنها، على طريقة القرآن الكريم، تحكي أحداث الغزوة، وما صاحب هذه الأحداث؛ وتربّي النفوس وتؤكد على معالم الإيمان، وبذلك يكون القَصَص هادفاً، ورواية الأحداث وسيلةً عملية لتقويمها، ومعرفة حكم الله فيها، واستنباط العظة والعبرة منها.

والقرآن الكريم فيه القصة، وفيه أحداث التاريخ، وفيه العظة والعبرة، وفيه الحُكم والتشريع، وفيه التهذيب والتربية، وقد استطاع أن يمزج ذلك كلّه بطريقته الخاصة، ليصل به الى قلب المؤمن، وليُسْهِم في بناء الفرد الصالح والأسرة الصالحة، والمجتمع الصالح والأمة الصالحة.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران/ ١١٠].

غزوة بني النضير

قَدِمَ رسول الله (ص) المدينة ومعه رسالته الهادية، وقد آمن به جَمْعٌ من المهاجرين والأنصار، ثم عَقَد معاهدات مع يَهُود المدينة على حرّية الأديان، وعلى المعايشة السلمية في

(*) انتقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

المدينة، وعلى ألاّ يكون اليهود لا عليه ولا له.

«وكان يهود بنو النضير حلفاء الخزرج، وبينهم وبين المسلمين عهود خاصة يَأمَن بها كل منهم الآخر» لكنّ بني النضير لم يُوفُوا بهذه العهود، حسداً منهم وبَغْياً، فقد ذهب رسول الله (ص) في عَشَرَةٍ من أصحابه الى محلة بني النضير، يطلب منهم المشاركة في أداء دِيَةِ قتيلين، بحكم ما بينه وبينهم من عهود، فاستقبله اليهود بالبِشر والتَّرحاب، ووعدوا بأداء ما عليهم بينما كانوا يدبّرون أمراً لاغتيال رسول الله (ص) ومن معه، وكان (ص)، جالساً إلى جدار من بيوتهم، فقال بعضهم لبعض: إنّكم لن تجدوا الرجل على مثل حالهِ هذه، فهل من رجل منكم يعلو هذا البيت فيلقي صخرة عليه فَيُريحَنا منه؟ فقال عمرو بن جحاش بن كعب: أنا لذلك، فَصَعِد ليلقي صخرة على رسول الله (ص)، فاطُّلع (ص) على قصدهم، فقام كأنّما ليقضي أمراً فلما غاب استبطأه من معه، فخرجوا من المحلّة يسألون عنه، فعلموا أنه دخل المدينة.

وأمر رسول الله (ص)، بالتهيؤ لحرب بني النَّضِير، لظهور الخيانة منهم، ونَقْض عهد الأمان الذي بينه وبينهم، وكان قد سبق هذا إقذاع كعب بن الأشرف، من بني النضير، في هجاء رسول الله (ص) وما قيل من أنّ كعباً ورهطاً من بني النضير، اتصلوا بكفار قريش اتصالَ تآمُرٍ وتحالُف وكيد، ممّا جعل رسول الله (ص) يأذن لمحمد ابن مسلمة في قَتْل كعب بن الأشرف، فقتله. فلما كان التبييت للغدر برسول الله (ص) في محلة بني النضير، لم يبق مفر من نبذ عهدهم.

ثم أرسل النبي (ص) إليهم، محمد بن مسلمة ليقول لهم اخرجوا من بلادي فقد هممتم بالغدر.

وتجهز الرسول (ص) لقتال بني النضير، وحاصر محلّتهم، وأمهلهم ثلاثة أيام، وقيل عشرة، ليفارقوا المدينة، على أن يأخذوا أموالهم، ويقيموا وكلاء عنهم على بساتينهم ومزارعهم.

وتهيّأ بنو النضير للرحيل؛ ولكنّ المنافقين في المدينة، أرسلوا إليهم يحرّضونهم على الرفض والمقاومة، وقالوا لهم لا تخرجوا من دياركم، وتمنّعوا في حصونكم ونحن معكم؛ إن

قوتلتم قاتلنا معكم؛ وان أُخرجتم خرجنا معكم؛ وقد حكى القرآن عمل المنافقين وشهّر بنفاقهم وكذبهم، قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾.

وقد طمع اليهود في معونة المنافقين ومؤازرتهم، فتحصّنوا في حصونهم، وتأخروا عن الجلاء، وظنوا أنّهم مانِعَتُهم حصونُهم من الله، فحاصرهم (ص) وضيّق عليهم الخِناق، ثم أمر بقطع نخيلهم ليكون ذلك أدعى الى تسليمهم، ثم قذف الله الرعب في قلوب اليهود، ولم يجدوا معونة من المنافقين، ويئسوا من صدق وعودهم، فسألوا رسول الله (ص) أن يجليهم ويكف عن دمائهم، وأنّ ما لهم ممّا حملت الإبل من أموالهم إلاّ آلة الحرب. فأجابهم النبي (ص) إلى طلبهم، وصار اليهود يخرّبون بيوتهم بأيديهم، كي لا يسكنها المسلمون.

ولـمّا سار اليهود، نزل بعضهم بخيبر، ومن أكابرهم حيي بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق.

ومنهم من سار الى أذرعات بالشام، وقد أسلم منهم اثنان: يامين بن عمرو، وأبو سعد بن وهب.

وكانت أموال بني النضير فيئاً خالصاً لله وللرسول، ولم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فقسّمها رسول الله (ص) بين المهاجرين خاصة، دون الأنصار، عدا رجلين من الأنصار فقيرين، هما سهل بن حنيف، وأبو دجانة سماك بن خرشه؛ وكان المهاجرون قد تركوا بلادهم وأموالهم، وهاجروا فراراً بدينهم الى المدينة؛ وقد استقبلهم الأنصار، بالبِشر والتّرحاب، والمعونة الصادقة، والإيثار الكريم. فلما واتت الفرصة، وزّع النبي (ص) الفَيْءَ على المهاجرين خاصةً لتحسين أحوالهم المادّية، ولكي لا يكون المال متداولاً بين الأغنياء وحدهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾﴾.

تسلسل أفكار السور

١ ـ وَصَفت سورة الحشر حصار بني النضير، وعناية الله بالمؤمنين، وانتهاء الحصار بجلاء اليهود وانتصار المؤمنين. [الآيات ١ ـ ٤].

٢ ـ تَحَدَّثَت عن قطع المسلمين للنخيل، وبيّنت أنّ ذلك كان بأمر الله سبحانه، ليذلّ به اليهود، ويخزي الفاسقين. [الآية ٥].

٣ ـ ذَكَرت حُكْم الفيء والغنائم، التي غنمها المسلمون من بني النضير، وبينت أنها توزع على المهاجرين لسدّ حاجتهم، ولا يعطى الأنصارُ منها شيئاً، لأنها ليست غنيمة حرب، استخدم فيها الكر والفر وركوب الإبل والخيل، ولكنّها غنيمة حصار محدود، انتهى بتسليم اليهود، بعد أن ألقى الله سبحانه الرعب في قلوبهم. [الآيتان ٦ ـ ٧].

٤ ـ باركت السورة كفاح المجاهدين، وخروجهم من مكة إلى المدينة، حفاظاً على الدين وفداء للعقيدة، كما باركت كرم الأنصار وأَرْيَحِيَّتَهم، ووصفتهم بالسماحة والإيثار، والمحبة للبذل والعطاء.

كما باركت الأجيال اللاحقة، التي وُلدت في محاضن الدعوة، وكانت ثمرة كريمة، لتربط المهاجرين والأنصار [الآيات ٨ ـ ١٠].

٥ ـ حملت السورة على المنافقين، وكشفت نفاقهم وكيدهم واتهمتهم بالجبن والصَّغار. [الآيات ١١ ـ ١٣].

٦ ـ بينت أن اللقاء بين المنافقين وأهل الكتاب، لقاء في الظاهر فقط، وبينهم من العداوة والإحَن ما يَظْهر في الشدائد: ﴿بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ﴾ [الآية ١٤].

٧ ـ أشارت إلى قصة الشيطان مع عابدٍ قيل إنّه يسمى برصيصا، أغراه الشيطان بارتكاب الفاحشة، ثم استدرجه الى الكفر، ثم تولى عنه وخَذَله، ومَثَلُه كَمَثَل المنافقين، زَيَّنوا لليهود المقاومة، والتحصُّن، ضد المسلمين، ثم خذلوهم. [الآية ١٦].

٨ ـ في الجزء الأخير، تلتفت السورة الى المؤمنين، فتأمرهم بالتقوى

والعمل الصالح، وتبيّن فضل القرآن الكريم وأثره في هداية القلوب. [الآيات ١٨ ـ ٢١].

تُختم السورة بذكر أسماء الله الحسنى، فهو سبحانه مالك الملك، ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ تقدّست أسماؤه، وتنزهت عن النقص ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ الذي يشمل عباده بالأمان والطمأنينة ويمنحهم السلامة والراحة، ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ واهب الأمن وواهب الايمان، ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ الرقيب على كل شيء ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب، ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ القاهر، ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ البليغ الكبرياء والعظمة، ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ﴾ الموجد، ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ خالق الصور للكائنات. ومن معناها إعطاء الملامح المتميزة، والسمات التي تمنح لكل شيء شخصيته الخاصة، ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الدالة على الصفات العالية، والكمال المطلق، فهو سبحانه متصف بكل كمال، ومنزّه عن كل نقص.

المقصد الإجمالي للسورة

قال الفيروزآبادي: معظم مقصود سورة الحشر هو:

الخبر عن جلاء بني النضير، وقسم الغنائم، وتفصيل حال المهاجرين والأنصار، والشكاية من المنافقين في واقعة بني قريظة؛ وذكر برصيصا[1] والنظر الى العواقب؛ وتأثير نزول القرآن الكريم وذكر أسماء الحق تعالى وصفاته؛ وبيان أن جميع المخلوقات تدل على عظمته وكماله وتنزيهه، في قوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

النظام الاقتصادي في الاسلام

أشارت الآية السابعة، من سورة الحشر، إلى الحكمة من توزيع الفيء على المهاجرين وحدهم، دون الأغنياء من أهل المدينة، بقوله تعالى: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ أي كي

(١) حمل بعضهم عليه الآية ١٦ من سورة الحشر، حيث استدرجه الشيطان إلى المعصية ثم الى الشرك ثم تخلى عنه، وذلك أن الشيطان ذهب الى بنت فخنقها حتى مرضت. ثم أفهم أهلها أن شفاءها عند ذلك العابد، فتركها أهلها عنده في صومعته ليرقيها، فلما شُفيت وسوس له الشيطان حتى ارتكب معها الفحشاء، فلما انكشف أمره، أُخذ ليُصلب، فطلب منه الشيطان أن يسجد له، حتى ينجو من الصلب، فسجد للشيطان ، ثم مات كافراً.

لا يكون الفيء، أي الغنيمة، متداولاً بين الأغنياء دون الفقراء. وهذه قاعدة هامة، من قواعد النظام الاقتصادي في الإسلام.

وقد احترم الإسلام الملكية الفردية، لأنها حافز طبيعي للعمل والانتاج، ولكنّه قلّم أظفار هذه الملكية، وحارب جبروت المال وطغيانه، بما يأتي:

١ ـ فرض الإسلام الزكاة، وجعلها نسبة متفاوتة حسب التعب في كسب المال. فزكاة المال نسبتها ١/٢ ٢ في المائة، وكذلك زكاة التجارة ١/٢ ٢ في المائة من رأس المال، وزكاة الزراعة ٥ في المائة، أو ١٠ في المائة. وقريب منها زكاة الماشية، وزكاة الرِّكاز، وهو المال، أو البترول، أو المعادن والكنوز التي توجد في باطن الأرض، نسبتها ٢٠ في المائة.

وهكذا، كلما كان عمل العبد أظهر، كانت نسبة الزكاة أقل؛ وكلّما كان عمل القدرة الإلهية أظهر كانت نسبة الزكاة أكثر، فكانت النسبة ٢٠ في المائة في الرِّكاز؛ و٢/١ ٢ في المائة في التجارة... الخ.

٢ ـ حرّم الإسلام الرِّبا والاحتكار، وهما الوسيلتان الرئيستان، لجعل المال دُولَةً بين الأغنياء، أي يتداوله الأغنياء، ولا يصل إليه الفقراء.

٣ ـ جعل للإمام الحقّ في أن يأخذ فضول أموال الأغنياء، فيردّها على الفقراء؛ وأن يفرض الضرائب في أموال الأغنياء، عند خلوّ بيت المال.

٤ ـ جعل هناك صدقاتٍ موسمية مثل صدقة الفطر، والأضحية؛ والهدف في الحج، والكفّارات؛ مثل كفّارة اليمين، والظِّهار والفطر في رمضان، وكلّها تنتهي الى إطعام المساكين أو كُسْوتِهم والتوسعة عليهم.

٥ ـ حث الإسلام على الصدقة والترحم والتكافل، والمودة والتعاطف بين الناس؛ وبذلك نجد أن النظام الاقتصادي في الإسلام نظام متميز، ليس فيه مساوئ الرأسمالية أو الشيوعية، بل فيه محاسنهما مع التجرّد من عيوبهما، وذلك نظام العليم الخبير، البصير بالنفوس الذي أعطى الإنسان حقّ التملك، ثم جعله موظّفاً في ماله، يجب عليه أن ينفق، وأن

يتصدّق عن طواعية، ورغبة في الثواب العاجل والآجل، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد/٧] وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ [البقرة].

ترابط الآيات في سورة «الحشر»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة الحشر بعد سورة البَيِّنة؛ ونزلت سورة البيّنة فيما بين صلح الحديبية وغزوة تبوك؛ فيكون نزول سورة الحشر في ذلك التاريخ أيضاً؛ والحقّ أنها من السُّوَر التي نزلت فيما بين غزوة بدر وصلح الحديبية، لأنها نزلت في غزوة بني النَّضِير، وكانت هذه الغزوة في السنة الرابعة من الهجرة.

وقد سمّيت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى في [الآية ٢] منها ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ وتبلغ آياتها أربعاً وعشرين آية.

الغرض منها وترتيبها

نزلت هذه السورة، في غزوة بني النضير من يهود المدينة؛ وكانوا قد نقضوا عهدهم مع النبي (ص) فأمرهم أن يخرجوا من المدينة فأبوا، وبعث إليهم عبد الله بن أُبَيّ رئيس المنافقين ألاّ يَخْرجوا، فإن قاتلهم المسلمون كانوا معهم عليهم، وإن أخرجوهم خرجوا معهم؛ فحاصرهم المسلمون، حتى رَضُوا أن يخرجوا من المدينة، على أنّ لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلاّ آلة الحرب، ولم يفعل المنافقون شيئاً مما وعدوهم به، وبهذا يظهر وجه ذكر هذه السورة بعد سورة المجادلة، لأن الكلام فيهما يتناول ما كان من موالاة المنافقين لليهود.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

الكلام على غزوة بني النضير
الآيات [١ ـ ٤]

قال الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾، فذكر تسبيح ما في السماوات وما في الأرض له، وأنه سبحانه عزيز حكيم؛ ومهّد بهذا لما أراده من بيان فضله على المسلمين في هذه الغزوة؛ فذكر جلّ شأنه، أنه هو الذي أخرج بني النضير من ديارهم لأول الحشر، الذي سيكون بإخراج اليهود جميعهم من جزيرة العرب؛ وكان المسلمون لا يظنّون أن يخرجوا، وكانوا هم يظنون أنّ حصونهم تمنعهم من الله، فقذف في قلوبهم الرعب حتى رَضوا بالخروج؛ ولولا هذا لَعُذّبوا في الدنيا بالقتل، ولهم في الآخرة عذاب النار؛ ثم ذكر سبحانه أنّ ما قطعه المسلمون من أشجارهم قبل الصلح، وما تركوه منها كان بإذنه، وكان في أنفسهم شيءٌ ممّا قطعوه منها، ولعلّهم ندموا على قطعها بعد أن صار ما بقي منها لهم؛ ثم ذكر تعالى أنّ ما أفاءه عليهم من أموالهم لم يكن بقتال؛ وأنّ حكم ما أفاءه عليهم بغير قتال أن يكون سهمٌ منه لله والرسول، يُنفق في عمارة المساجد ونحوها، وسهمٌ لذوي القُربى، وهم بنو هاشم وبنو المطّلب، وسهمٌ لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل، فلا يأخذ الأغنياء منه شيئاً، وإنما يأخذه فقراء المهاجرين، الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم تعويضاً لهم؛ وقد أثنى سبحانه عليهم في هجرتهم وتضحيتهم بأموالهم، وأثنى بعدهم على الأنصار الذين آوَوْهم في دار هجرتهم، وطابت نفوسهم بتوزيع أموال بني النّضير عليهم؛ وأثنى بعد الفريقين على من يجيء بعدهم، ويسلك سبيلهم، في ما كان من تضحية وإيثار وتحابّ؛ ثم ذكر ما كان من قول المنافقين لبني النضير ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ [الآية ١١] وذكر سبحانه أنهم كاذبون في وعدهم لهم، فلئن أخرجوا لا يخرجون معهم، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم، ولئن نصروهم لَيُوَلُّنَّ الأدبار جميعاً؛ لأنهم يَرْهبون المسلمين أشد من رهبتهم من الله، فلا يقاتلونهم إلا في قرى محصنة أو من وراء جُدُر؛ لأنهم ضعاف بسبب عداوة بعضهم لبعض، فيحسبهم من ينظر إليهم أنهم على وفاق، ولكنّ قلوبهم مختلفة

متفرّقة؛ فَمَثَلُهم في ذلك كَمَثَلِ أهل بدر من قبلهم، حينما ذاقوا وبال أمرهم، ولم يغنِ بعضهم عن بعض شيئاً، وكَمَثَلِ الشيطان حينما يغوي الإنسان على الكفر، ثم يتبرأ منه: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

ثم أمر، سبحانه، المؤمنين بتقواه، وأن ينظر كل واحد منهم ما قدّمه لغده؛ ونهاهم أن يكونوا كأولئك المنافقين واليهود، والذين نَسُوه فأنساهم أنفسهم. ثم يمضي السياق بعد ذلك إلى تعظيم شأن القرآن الذي ينزل بمثل هذه الآيات والمواعظ. فذكر تعالى أنه لو أنزله على جبل لتصدّع من خَشيةِ مُنزِله، وأتبع ذلك بشرح عظمته، جلّت قدرته، فذكر من صفاته ما ذكر، إلى أن ختمها بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

أسرار ترتيب سورة «الحشر»(*)

آخر سورة المجادلة نزل فيمن قُتِلَ أقرباؤه من الصحابة يوم بدر[1]، وأول الحشر نزل في غزوة بني النضير[2] وهي عقبها، وذلك نوع من المناسبة والربط.

وفي آخر المجادلة: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [الآية ٢١]. وفي أول هذه: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الآية ٢].

وفي آخر المجادلة، الآية ٢٢، ذكر من حادَّ الله ورسوله[3]، وفي أول هذه ذكر من شاقّ الله ورسوله[4].

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) وهو قوله تعالى من الآية ٢٢: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾.

وقيل هم: أبو عبيدة قتل أباه يوم بدر، وأبو بكر همّ بقتل ولده عبد الرحمن، ومصعب بن عمير قتل أخاه عبيداً، وعمر قتل قريباً له، وحمزة وعلي وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة (طبقات ابن سعد: ٣/ ١/ ٣٠٠).

(٢) وذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ [الآية ٢].

وأخرج البخاري في التفسير: ٦/ ١٨٣، ومسلم في التفسير: ٨/ ٢٤٥ عن ابن عباس، أن أول الحشر أنزلت في بني النضير.

(٣) وذلك قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

(٤) وذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الآية ٤].

مكنونات سورة «الحشر»(*)

١ - ﴿أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الآية ٢].

هم بنو النَّضِير.(١)

٢ - ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ [الآية ٢].

قال ابنُ عبّاس: هو الشّام. أخرجه ابنُ أبي حاتم(٢).

٣ - ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ [الآية ٧].

قال مُقاتِل: يعني قُرَيْظة والنَّضِير وخَيْبَر. أخرجه ابنُ أبي حاتم.

٤ - ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ [الآية ١٦].

هو بَرْصِيصَا العابد. ذكره ابنُ كَثِير(٣).

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِماتِ الأقران في مُبْهَمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) أخرجه البخاري (٤٨٨٢) في التفسير، عن ابن عبّاس موقوفاً.

(٢) والطبري في «تفسيره» ٢٨/١٩، عن عدد من الرواة.

(٣) في «تفسيره» ٤/ ٣٤١.

لغة التنزيل في سورة «الحشر»(*)

١ ـ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ﴾ [الآية ٦].

أقول: الإيجاف من الوجيف وهو السير السريع.

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ﴾، أي ما أوجفتم على تحصيله وغُنمه، خيلاً ولا ركاباً، ولا تعبتم في القتال عليه، وإنّما مشيتم على أرجلكم.

والمعنى: أن ما خوّل الله رسوله من أموال بني النَّضِير، لم تحصّلوه بالقتال والغلبة، ولكن سلّطه الله عليهم، وعلى ما في أيديهم، كما كان يسلّط رسله على أعدائهم.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾ [الآية ٩].

أقول: الخصاصة الخَلّة، وأصلها خصاص البيت، أي: فرُوجه. وهذه الخلّة، أي: الفرجة استعيرت للحاجة أو الفقر، فكأن صاحبها به مثل هذا النقص..

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ﴾ [الآية ١٤] أي متفرقة.

أقول: كأنّ قوله تعالى: ﴿شَتَّىٰۚ﴾ جمع شتيت، وقد أنسي المفرد فاستعملت الكلمة استعمال المفرد صفة.

ونظير هذا كلمة «فوضى» أقول: لعلها في الأصل فضّى جمع فضيض!

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

المعاني اللغوية في سورة «الحشر»(*)

قال تعالى: ﴿فَأَتَنْهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ﴾ [الآية ٢] أي: «فجاءهم أمر الله»، وقال بعضهم أي: آتاهم العذاب، لأنك تقول: «أتاهُ» و«آتاهُ» كما تقول: «ذَهَبَ» و«أَذْهَبْتُهُ».

وقال تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ [الآية ٥] وهي من «اللَّوْنَ» في الجماعة، وواحدته «لِينَة»، وهو ضرب من النخل، ولكن لمّا انكسر ما قبلها انقلبت الى الياء.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [الآية ٦] تقول: «فَاءَ عَلَيَّ كَذا وَكَذا» و«أَفَاءَهُ اللهُ» كما تقول: «جَاءَ» و«أَجَاءَهُ اللهُ» وهو مثل «ذَهَبَ» وأذْهَبْتُهُ».

وقال تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً﴾ [الآية ٧] و «الدُّولَةُ» في هذا المعنى أن يكون ذلك المال مرّةً لهذا، ومرّةً لهذا، وتقول: «كانَتْ لَنا عَلَيْهِم الدُّولة». وأمّا انتصابها، فعلى تقدير «كَيْ لاَ يكونَ الفَيءُ دُولَةً» و«كي لا تكون دُولَةً» أي: «لا تكون الغنيمة دُولَةً» ويزعمون أنَّ «الدَّوْلَة» أيضاً في المال، لُغةٌ لِلْعَرَب، ولا تكاد تعرف «الدَّوْلَةُ في المال».

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ [الآية ٩] أي: مَمّا أُعْطُوا.

وقال تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ [الآية ١٢] برفع الآخِر لأنه معتمد لليمين، لأن هذه اللام التي في أول الكلام، إنّما تكون لليمين كقول

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ.

الشاعر(*) [من الطويل، وهو الشاهد السبعون بعد المئتين]:

لَئِنْ عادَ لِي عبدُ العَزِيزِ بِمِثْلِهَا
وَأمكَنَنِي مِنْها إذَنْ لا أُقِيلُهَا

وقال تعالى: ﴿أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَآ﴾ [الآية ١٧] بنصب «خالدين» على الحال و (في النار) خبر. ولو كان في الكلام «إنَّهُما في النار» كانَ الرفعُ في «خالِدَين» جائزاً. وليس قولهم: إذا جئتَ بـ «فيها» مرتين فهو نصب «بشيء» إنّما «فيها» توكيد جئت بها، أو لم تجئ بها، فهو سواء. ألا ترى أنّ العرب كثيراً ما تجعله حالاً إذا كان «فيها» التوكيد، وما أشبهه. وهو في القرآن منصوب في غير مكان. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [البيّنة/٦].

(*) هو كثير بن عبد الرحمن ديوانه ٣٠٥، والكتاب وتحصيل عين الذهب ١/ ٤١٢، والخزانة ٣/ ٥٨٠.

لكل سؤال جواب في سورة «الحشر»(*)

إن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الآية ٩].

والإيمان ليس مكاناً يُتبوأ، لأن معنى التَّبوُّء اتخاذ المكان منزلاً؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: وأخلصوا الإيمان، كقول الشاعر:

*عَلَفْتها تِبْناً وماءً بارِداً * أي وسقيتها ماء بارداً. ثانياً: أنه على ظاهره بغير إضمار ولكنه مجاز، فمعناه أنهم جعلوا الإيمان مستقراً وموطناً، لتمكّنهم منه واستقامتهم عليه، كما جعلوا دار الهجرة كذلك، وهي المدينة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ [الآية ١٢] بعد الإخبار بأنهم لا ينصرونهم، وحرف الشرط إنّما يدخل على ما يحتمل وجوده وعدمه.

قلنا: معناه: ولئن نصروهم على الفرض والتقدير، كقوله تعالى للنبي (ص): ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزُّمَر/٦٥] وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء/٢٢] والله تعالى، كما يعلم ما يكون قبل كونه، فهو يعلم مالا يكون، أنْ لو كان كيف يكون.

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى للمؤمنين: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الآية ١٣]، أي في صدور المنافقين أو اليهود، على اختلاف القولين، وظاهره: لأنتم أشدّ خوفاً من الله، فإن كان «من» متعلّقا

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرخ.

بأشدّ، لزم ثبوت الخوف لله تعالى، كما تقول: زيد أشدّ خوفاً في الدار من عمرو. وذلك محال، وإن كان «من الله» متعلّقاً بالخوف فأين الذي فضل عليه المخاطبون؛ وأيضاً فإن الآية تقتضي إثبات زيادة الخوف للمؤمنين، وليس المراد ذلك باتفاق المفسرين؟

قلنا: «رهبة» مصدر رُهِبَ، مبنيٌ لما لم يُسمَّ فاعله؛ فكأنه قيل أشدّ مرهوبية، يعني أنكم في صدورهم أهيب من الله فيها؛ كذا فسّره ابن عباس رضي الله عنهما، تقول زيد أشدّ ضرباً في الدار من عمرو، يعني مضروبية.

فإن قيل: كيف يستقيم التفضيل بأشدّية الرهبة، مع أنهم كانوا لا يرهبون الله، لأنهم لو رهبوه لتركوا النفاق والكفر؟

قلنا معناه أنّ رهبتهم في السر منكم أشدّ من رهبتهم من الله التي يظهرونها لكم؛ وكانوا يظهرون للمؤمنين رهبة شديدة من الله تعالى.

فإن قيل: لِمَ ورد في التنزيل على لسان إبليس: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ [الآية ١٦]. وهو لا يخاف الله تعالى، لأنه لو خافهُ لما خالفه، ثم أضلّ عبيده؟

قلنا: قد سبق هذا السؤال وجوابه في سورة الأنفال.

فإن قيل ما الحكمة في تنكير النفس والغد، في قوله تعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الآية ١٨]؟

قلنا: أما تنكير النفس، فلاستقلال الأنفس النواظر فيما قدّمت للآخرة، كأنه تعالى قال: ولتنظر نفس واحدة في ذلك، وأين تلك النفس. وأمّا تنكير الغد؛ فلعظمته، وإبهام أمره، كأنه قال لغدٍ لا يعرف كنهه لعظمه.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى، ﴿لِغَدٍ﴾ وأراد به يوم القيامة، والغد عبارة عن يوم بينه وبيننا ليلة واحدة؟

قلنا: الغد له مفهومان: أحدهما ماذكرتم. والثاني مطلق الزمان المستقبل؛ ومنه قول الشاعر:

وأعلَمُ ما في اليوم والأمسِ قَبلَهُ
ولَكنني عَنْ عِلْمِ ما في غَدٍ عَمِي

وأراد به مطلق الزمان المستقبل، كما أراد بالأمس مطلق الزمان الماضي، فصار لكل واحد منهما مفهومان؛ ويؤيده أيضاً قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ

﴿تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس/٢٤] وقيل إنما أطلق على يوم القيامة اسم الغد، تقريباً له، كقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر/١] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل/٧٧] وكأنه تعالى قال: إن يوم القيامة لقربه يشبه ما ليس بينكم وبينه إلا ليلة واحدة، ولهذا روي عن النبي (ص) أنه قال «اعمل لِلَيلةٍ صبيحتُها يومُ القيامة» قالوا أراد بتلك الليلة ليلة الموت.

فإن قيل: ما الفرق بين الخالق والبارئ، حتى عطف تعالى أحدهما على الآخر؟

قلنا: الخالق هو المقدِّر لما يوجده، والبارئ هو المميِّز بعضه من بعض بالأشكال المختلفة. وقيل الخالق المبدئ، والبارئ المعيد.

المعاني المجازية في سورة «الحشر»(*)

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الآية ٩]. استعارة: لأن تبوُّءَ الدار هو استيطانها والتمكّن فيها، ولا يصحُّ حمْل ذلك على حقيقته في الإيمان. فلا بُدَّ إذن من حمله على المجاز والاتساع.

فيكون المعنى أنهم استقرُّوا في الإيمان، كاستقرارهم في الأوطان. وهذا من صميم البلاغة، ولباب الفصاحة. وقد زاد اللفظ المستعار ههنا معنى الكلام رونقاً. ألا ترَى كم بين قولنا: استقَرُّوا في الإيمان، وبين قولنا: تَبَوّأوا الإيمان.

وأنا أقول، أبداً، إن الألفاظ خَدَمٌ للمعاني، لأنها تعمل في تحسين معارضها، وتنميق مطالعها.

وقوله سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٢١] هو على سبيل المجاز. والمعنى أن الجبلَ لو كان ممّا يعي القرآنَ، ويَعْرف البيان لخشع من سماعه، ولتصدَّع من عِظَم شأنه، على غِلَظِ أجرامه، وخشونة أكنافه. فالإنسان أحقُّ بذلك منه، إذ كان واعياً لقوارعه، عالماً بصوادعه.

(*) انتُقي هذا المبحث من كِتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرخ.

سورة المُمتَحِنة

٦٠

أهداف سورة «الممتحنة»(*)

سورة الممتحنة سورة مدنية آياتها ١٣ آية، نزلت بعد سورة الأحزاب.

قصة نزول السورة

هاجر الرسول (ص) الى المدينة، واستطاع أن يؤلّف بين المهاجرين والأنصار، وأن يضع أسس الدعوة الإسلامية، وأن يصنع أمّة تميّزت بالأخلاق الكريمة، والصفات الحميدة. وقد وقف كفار مكّة في وجه الدعوة الإسلامية، ووقعت عدة معارك بين المسلمين والمشركين منها: بدر وأحد والخندق والأحزاب والحُدَيْبِيَة. ثمّ توقّفت هذه المعارك بعد صلح الحديبية، وكان من أهم نصوص الصلح: وضع الحرب بين الفريقين عشر سنين، وأنّ من أراد أن يدخل في حلف محمد دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في حلف قريش دخل فيه.

وعلى أثر ذلك دخلت قبيلة خزاعة في حلف رسول الله (ص) ودخلت قبيلة بكر في حلف قريش.

ثمّ إنّ قريشاً نقضت العهد بمساعدتها قبيلة بكر حليفتها على قتال خزاعة حليفة النبي حتّى قتلوا منهم عشرين رجلاً، وقد لجأت خزاعة الى الحرم لتحتمي به، ولكنّ ذلك لم يمنع رجال بكر من متابعتها، فاستنصرت خزاعة برسول الله (ص)، وذهب رجال منهم إلى المدينة فأخبروا رسول الله بما كان

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

من غدر بكر بهم ومعاونة قريش عليهم، وأنشد عمرو بن سالم، بين يديه:

يـا رَبِّ إنـي نـاشـدٌ مـحـمّـداً
حِلـفَ أبـيـنـا وأبـيـه الأتـلَـدا
إنّ قـريـشـاً أخـلـفـوك الـمَـوْعِـدا
ونـقَـضُـوا مـيـثـاقَـك الـمـؤكَّـدا
هـم بـيّـتـونـا بـالـوتـيـر هُـجّـدا
وقـتـلـونـا رُكَّـعـاً وسُـجّـدا
فـانـصُـرْ هـداك الله نَـصْـراً أيّـدا
وادْعُ عـبـادَ الله يـأتـوا مَـدَدا

فقال له رسول الله (ص) نُصِرتَ ياعمرو بن سالم.

وأخذ رسول الله يتجهّز لفتح مكّة، وطَوَى الأخبار عن الجيش كي لا يشيع الأمر فتعلم قريش فتستعدّ للحرب، والرسول الأمين لا يريد أن يقيم حرباً بمكّة، بل يريد انقياد أهلها مع عدم المساس بهم، فدعا الله قائلاً: «اللّهمّ خذ العيون والأخبار عن قريش حتّى نَبْغَتَها في بلادها».

حاطب يفشي السر

كان حاطب من كبار المسلمين، وقد شهد مع النبي غزوة بدر مخلصاً في جهادها، ولكنّ في النفس الانسانية جوانب ضعف تَطْغَى في بعض الأحيان عليها، وتهوي بها من المنازل العالية الى الحضيض. لقد كتب حاطب كتاباً إلى قريش، يخبرهم فيه بعزم المسلمين على فتح مكّة، واستأجر امرأة من مُزَيْنة تسمّى سارة، وجعل لها عَشَرَة دنانير مكافأة، وأمرها ان تتلطّف وتحتال حتّى توصل كتابه الى قريش، فأخذت المرأة الكتاب فأخفته، وسلكت طريقها الى مكة. ثم أخبر الله رسوله بما صنع حاطب، فأرسل النبيّ علي بن أبي طالب والزبير بن العوام في إثْرِ المرأة، فأدركاها في الطريق، واستخرجا منها الكتاب، فأحضراه الى رسول الله (ص)؛ فدعا رسول الله (ص) حاطباً، فأطلعه على الكتاب، ثم قال له: ما حملك على هذا؟ فقال حاطب: يا رسول الله لا تَعْجَلْ عَلَيّ، فوالله إنّي لمؤمن بالله ورسوله، ما غيّرتُ ولا بدّلت، ولكنّي كنت امْرَأً ليس لي في القوم من أهل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهُرِهم ولد وأهل، فصانعتهم عليهم ولم أفعل ذلك ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإيمان. ورأى النبيّ صدق لهجة حاطب، وحسن نيّته في ما أقدم عليه من ذلك

الذنب، فقال لمن حوله: أَمَا إِنّه قد صَدَقَكُم في ما أخبركم به. ونظر النبيّ إلى ماضي الرجل في الجهاد، وخُشن بلائه في الذود عن حرمات الإسلام، فرغب في العفو عنه.

أمّا عمر بن الخطاب، فقد كَبُرَت عليه هذه الخيانة، فنظر إلى حاطب وقال له: قاتلك الله، ترى رسول الله يخفي الأمر، وتكتب أنت إلى قريش؟ يا رسول الله، دَعْني أضرب عنق هذا المنافق.

فتبسّم رسول الله، من حماسة عمر، وقال: وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطّلع على أهل بدر فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، فدمعت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم.

وفي هذه الحادثة أنزل الله صدر سورة الممتحنة يحذّر المؤمنين من أن يوالوا عدوّهم، أو يطلعوه على بعض أسرارهم مهما يكن السبب الذي يدفع الى ذلك، فإنّ العدوّ عدو حيثما كان، وموادّة العدوّ خيانة ليس بعدها خيانة. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الآية ١].

فكرة السورة

تسير السورة مع النفس الإنسانية، تحاول جاهدة أن تربي المسلمين تربية خاصة، عمادها الولاء للدعوة وحدها، والمودة لله، والمحبة لله، والتجمع على دعوة الله.

على هذا المعنى قامت الدعوة الإسلامية، وظهر الإيثار والأُخُوَّة بين المهاجرين والأنصار.

ومن شعائر هذا الدين بغض الفاسقين والملحدين في دين الله، وقد انتهزت السورة فرصة ضعف حاطب، فجعلت ذلك وسيلة عملية لتهذيب النفوس، ورسم المثل الأعلى للمسلم.

وقد عالجت السورة مشكلة الأواصر القريبة، والعصبيات الصغيرة، وحرص النفوس على مألوفاتها الموروثة، ليخرج المسلم من الضيق المحلي إلى الأفق العالمي الانساني.

«لقد كان القرآن بهذا الأسلوب في التربية ينشئ في هذه النفوس صورة جديدة، وقِيَماً جديدة، وموازين جديدة، وفكرة جديدة عن الكون والحياة والإنسان ووظيفة المؤمنين في الأرض، وغاية الوجود الانساني.

«وكان كأنما يجمع هذه النباتات الصغيرة الجديدة في كنف الله، ليعلمهم الله، ويُبَصِّرهم بحقيقة وجودهم وغايته، وليَفْتح أعينهم على ما يحيط بهم من عداوات ومكر وكيد، وليشعرهم أنّهم رجاله وحزبه، وأنه يريد بهم أمراً ويحقّق بهم قدراً، ومن ثَمّ فهم يوسمون بِسِمَتِهِ، ويحملون شارته، ويُعرفون بهذه الشارة وتلك السمة بين الأقوام جميعاً، في الدنيا والآخرة؛ وإذن فليكونوا خالصين له، منقطعين لولايته، متجرّدين من كل وشيجة غير وشيجته في عالم الشعور وعالم السلوك».

تسلسل افكار السورة

سورة الممتحنة من أولها الى آخرها تنظم علاقة المسلمين بالمشركين، وتدعو الى تقوية أواصر المودة بين المسلمين، وحفظ هذه الوشائج قوية متينة بين المؤمنين، وتبيّن أنّ عداوة الكافرين للمسلمين أصيلة قديمة، فقد أخرجهم كفّار مكّة من ديارهم وأهلهم وأموالهم [الآية ١] وإذا انتصر المشركون عليهم عاملوهم معاملة الأعداء، رجاء أن يعودوا بهم من الإيمان إلى الكفر، وحينئذ لا تنفعُهم أرحامهم ولا أولادهم ولا تنجيهم من عقاب الله [الآيتان ١ ـ ٣].

ثم ترسم السورة قدوة حسنة بإبراهيم الخليل ومن معه من المؤمنين، حينما آمنوا بالله وأخلصوا له النية، وتجردوا من كل عاطفة نحو قومهم المشركين. وأعلنوا براءتهم من الشرك وأهله، وقد استغفر إبراهيم لأبيه، فلما تأكّد لإبراهيم إصرار أبيه على الشرك تبرّأ منه.

ذلك ركب الإيمان، وطريق المؤمنين في تاريخ البشرية يَتّسم بالتضحية والفداء، والاستعلاء على رغبات النفس في صلة الأقارب من المشركين؛ فالمودّة لله وللمؤمنين [الآيات ٤ - ٦].

ولعل الله أن يهدي هؤلاء المشركين فيدخلوا في دين الله، وبذلك تتحوّل العداوة إلى مودّة، وقد فُتحت مكّة بعد ذلك، وعاد الجميع إخْوةً متحابّين [الآية ٧].

وقد أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق، فهو نبي الهدى والسلام؛ والإسلام في طبيعته دين سلام، فاسمه مشتقّ من السلام؛ والله، تقدّست

أسماؤه، اسمه السلام؛ والإسلام لا يمنع من موالاة الكفار، والبَرّ بهم، وتَحَرّي العدل في معاملتهم، ما داموا لم يقاتلونا في الدين.

ولكنّ الإسلام يَنْهَى أشدّ النهي عن موالاة الكفّار المقاتلين أو الذين يستعدون لقتال المسلمين، ويرى كشف خطط المسلمين لهم خيانة للعقيدة وللأمة الاسلامية.

«وهذا التوجيه يتفق مع اتجاه السورة كلها الى إبراز قيمة العقيدة، وجعلها هي الرايةَ الوحيدة التي يقف تحتها المسلمون؛ فمن وقف معهم تحتها فهو منهم، ومن قاتلهم فيها فهو عدوهم، ومن سالمهم فتركهم لعقيدتهم، ودعوتهم، ولم يَصُدّ الناس عنها، ولم يحل بينهم وبين سماعها، ولم يفتن المؤمنين بها، فهو مسالم لا يمنع الاسلام من البرّ به والقسط معه» [الآيتان ٨ ـ ٩].

وكان صلح الحديبية ينص على أنّ من جاء مسلماً بدون إذن وليّه يردّه المسلمون إلى أهل مكّة، ومن جاء إلى مكّة مشركاً لا يردّونه.

ثمّ أسلمت نساءٌ من أهل مكّة وجاء أزواجهنّ يطلبونهنّ، فنزلت هذه الآيات تؤيّد أنّ المرأة لا يصح أن تُرَدّ إلى زوجها الكافر لأنها لا تحل له بعد أن آمنت بالله وبقي الزوج على الشرك، وكانت المرأة تمتحن، أي تحلف بالله ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، وبالله ما خرجت التماساً للدنيا، وبالله ما خرجت إلاّ حبّاً لله ورسوله، فإذا حلفت، كان لنا الظاهر والله أعلم بالسرائر. عندئذ تعيش في المجتمع المسلم. فإن تزوجت أعاد زوجها المسلم إلى الزوج المشرك ما انفقه عليها، وكذلك إذا ذهبت زوجة مسلمة الى المشركين مرتدّة، فإذا تزوّجت يَرُدُّ المشركون للمسلم المهر الذي دفعه لها [الآيات ١٠ ـ ١١].

ثمّ بيّن الله سبحانه لرسوله (ص) كيف يبايع النساء على الإيمان وقواعده الأساسية، وهي التوحيد، وعدم الشرك بالله إطلاقاً، وعدم اقتراف المحرمات وهي السرقة، والزنا، وقتل الأولاد، والإتيان ببهتان يفترينه، ثم طاعة الرسول في كل ما يأمر به، أي امتثال المأمورات واجتناب المحرمات [الآية ١٢].

وفي ختام السورة تجد آية تجمع

الهدف الكبير فَتَنْهَى عن موالاة من غضب الله عليهم من اليهود والمشركين [الآية ١٣].

مقصود السورة إجمالاً

قال الفيروزآبادي: معظم مقصود السورة: النهي عن موالاة الخارجين عن مِلّة الإسلام، والاقتداء بالسلف الصالح في طريق الطاعة والعبادة، وانتظار المودّة بعد العداوة، وامتحان المدّعين بمطالبة الحقيقة، وأمر الرسول بكيفية البيعة مع أهل الستر والعفّة، والتجنّب من أهل الزيغ والضلالة، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ۝١٣﴾.

ترابط الآيات في سورة «الممتحنة»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة الممتحنة بعد سورة الأحزاب، وكان نزولها بعد صلح الحديبية في السنة السادسة من الهجرة، فتكون من السُّور التي نزلت فيما بين هذا الصلح وغزوة تَبُوك.

وقد سمّيت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى في [الآية ١٠] منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ وتبلغ آياتها ثلاث عشرة آية.

الغرض منها وترتيبها

يقصد من هذه السورة نهيُ المؤمنين عن موالاة المشركين بعد نهيهم عن موالاة اليهود، وكان المسلمون قد عقدوا مع قريش هدنة في صلح الحديبية لمدة أربع سنين، فنزلت هذه السورة بعد هذا الصلح لِيَفْهَمه المسلمون على حقيقته، لأنّه لم يَقْضِ على ما بين الفريقين من عداء، وإنّما كان اتّفاقاً على وضع الحرب بينهم هذه المدّة، ولا شكّ في أنّ هذه السورة تشبه سورة الحشر في نهي المؤمنين عن موالاة غيرهم، وهذا هو وجه المناسبة بينهما.

النهي عن موالاة المشركين
الآيات [١ ـ ١٣]

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الآية ١]، فنهاهم عن موالاة المشركين الذين أخرجوهم من ديارهم، ووبّخ من يُسِرّ إليهم بالمودة من المنافقين، وذكر أنهم إن يلتقوا بهم يكونوا لهم أعداء ويؤذوهم بالفعل والقول، وهدّدهم إذا راعوا في ذلك ما بينهم من قرابة بأنها لن تنفعهم يوم القيامة، بل يفصل فيها بينهم، ولا ينتفع بعضهم بقرابة بعض، ثمّ أخبرهم، جلّ وعلا، بما كان من إبراهيم والذين معه إذ تبرّأوا من قومهم وعادوهم، ليكون لهم قدوةً حسنة فيهم؛ ثم ذكر أنهم إذا عادوهم ترجى مودّتهم بإسلامهم، لأنّ العداوة قد تكون سبباً في المودّة؛ ثم ذكر، سبحانه، أنه لا ينهاهم عن موالاة الذين لم يقاتلوهم في الدّين، ولم يخرجوهم من ديارهم، وإنّما ينهاهم عن موالاة الذين فعلوا ذلك معهم. وكان في صلح الحديبية أن يَرُدَّ النبي (ص) على قريش من يهاجر إليه منهم، فجاءته سبيعة بنت الحارث مسلمةً، وهو لا يزال بالحديبية، فأقبل زوجها يطلب ردّها إليه على ما جاء في الصلح بينهم، وكذلك فعل غيرها من النساء، فجاء أهلهن يطلبون رَدَّهُن، فأجابهم النبي (ص) بأن هذا الشرط في الرجال دون النساء، وذكر الله تعالى في ذلك أنه إذا جاءهم المؤمنات مهاجرات فليمتحنوهنّ، فإنْ علموهنّ مؤمنات لا يُرْجعوهنّ إلى الكفّار، لأنهنّ محرّمات عليهم، وهم محرّمون عليهنّ؛ وأَحَلَّ للمسلمين أن ينكحوهنّ إذا دفعوا لهنّ مهورهنّ، إلى غير هذا ممّا ذكره في أمرهنّ؛ ثمّ أمر النبي (ص) إذا جاءه المؤمنات مهاجرات يبايعنه، ألاّ يُشرِكْن، ولا يسرقن، ولا يَزْنِينَ، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان من نميمة أو نحوها، ولا يعصينه في معروف أن يبايعهنّ ويستغفر لهنّ الله، إنّ الله غفور رحيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

أسرار ترتيب سورة «الممتحنة»(*)

أقول: لمّا كانت سورة الحشر في المعاهَدين من أهل الكتاب، عُقِّبت بهذه لاشتمالها على ذكر المعاهَدين من المشركين، لأنها نزلت في صلح الحُدَيْبِية[1].

ولمّا ذَكَر، سبحانه، في سورة الحشر، موالاة المؤمنين بعضهم بعضاً، ثمّ موالاة الذين من أهل الكتاب، افتَتَح هذه السورة بنهي المؤمنين عن اتّخاذ الكفّار أولياء، لئلا يشابِهوا المنافقين في ذلك؛ وكرّرَ ذلك وبسطه، إلى أن خَتَم به، فكانت في غاية الاتّصال؛ ولذلك، كان الفصل بها بين الحشر والصف، مع تآخيهما في الافتتاح بـ ﴿سَبَّحَ﴾.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، لمّا أخبر المشركين بعزم النبي (ص) على فتح مكّة بعد أن نقض المشركون صلح الحديبية. (البخاري في التفسير: ٦/ ١٨٥، ١٨٦، والترمذي في التفسير: ٩/ ١٩٨ . ٢٠٢ بتحفة الأحوذي ومسند الإمام أحمد: ١/ ٧٩، ٨٠).

مكنونات سورة «الممتحنة»(*)

١ ـ ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ [الآية ١].

نَزَلتْ في حاطب بن أبي بَلْتَعة.

٢ ـ ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ [الآية ٧].

قال ابنُ شهاب: نزلت في جماعة، منهم أبو سُفْيان. أخرجه ابنُ أبي حاتِم.

٣ ـ ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ [الآية ٨].

نزلت في قتيلة أُمّ أسماء بنت أبي بكر، كما في «المستدرك».

٤ ـ ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ [الآية ١٠].

أخرج الطبراني عن عبد الله: أنّها نزلتْ في أمّ كلثوم بنت عقبة ابن أبي مُعَيط.

وأخرج ابنُ أبي حاتِم عن يزيد ابن أبي حبيب: أنّه بَلَغَهُ أنّها نزلت في أُميمة بنت بِشر، امرأةِ أبي حسّان بن الدحداحة.

وعن مقاتل: أنّها نزلت في سعيدة، امرأة صيفي بن الراهب.

٥ ـ ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الآية ١١].

قال الْحَسَنُ: نزلت في أمّ الحكم بنت أبي سفيان، ارتدّت فتزوّجها رجلٌ ثقفي، ولم ترتدَّ امرأة من قريش غيرها، فأَسْلَمَتْ مع ثقيف، حينما أسلموا، أخرجه ابنُ أبي حاتِم.

٦ ـ ﴿لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الآية ١٣].

قال ابنُ مسعود: هم اليهود والنَّصارى. أخرجه ابنُ أبي حاتِم.

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِمات الأقران في مُبْهمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

لغة التنزيل في سورة «الممتحنة»(*)

١ ـ وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا مِنكُمْ﴾ [الآية ٤].

أقول بُرَءاء مثل شُرَكاء، جمع بريء، واجتماع الهمزتين مع المد يجعلها ثقيلة، ومن أجل ذلك قرئت «بُراء» بالضم، و «بِراء» بالكسر.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

المعاني اللغوية في سورة «الممتحنة»(*)

قال تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الآية ٤].

استثناء خارج من أول الكلام.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ.

لكل سؤال جواب في سورة «الممتحنة»(*)

إن قيل: مِمَّ استُثنِيَ قولُه تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ [الآية ٤]؟

قلنا: من قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الآية ٤]. لأنه سبحانه أراد بالأسوة الحسنة قوله الذي حكاه عنه وعن أتباعه وأشياعه، ليقتدوا به ويتخذوه سُنّة يستنّون بها؛ واستَثنَى سبحانه استغفاره لأبيه، لأنه كان عن موعدة وعدَها إيّاه.

فإن قيل: فإن كان استغفاره لأبيه، أو وعْدُه لأبيه بالاستغفار مستثنى من الأسوة، فكيف عطف عليه قوله ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [الآية ٤] وهو لا يصح استثناؤه؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الفتح/ ١١]؟

قلنا: المقصود بالاستثناء هو الجملة الأولى فقط، وما بعدها ذُكِر لأنه من تمام كلام إبراهيم صلوات الله عليه، لا بقصد الاستثناء؛ كأنه قال: أنا أستغفر لك، وما في طاقتي إلاّ الاستغفار.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ [الآية ١٢]، ومعلوم أن النبي (ص) لا يأمر إلاّ بمعروف، فلماذا لم يقتصر على قوله تعالى ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ﴾؟

قلنا: الحكمة فيه سرعة تَبادُر الأفهام إلى قبح المعصية منهنّ لو وقعت، من غير توقّف الفهم على المقدّمة التي أوردتم في السؤال.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

المعاني المجازية في سورة «الممتحنة»(*)

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الآية ١]. استعارة على أحد التأويلين، وهو أن يكون المعنى: تلقون إليهم بالمودة ليتمسّكوا بها منكم. كما يقول القائل: ألقيْتُ إلى فلانٍ بالحبل ليتعلّق به، وسواءٌ أقال: ألقيت بالحبل، أم ألقيت الحبل. وكذلك لو قال: ألقيت إلى فلان بالمودة، أو ألقيْتُ إليه المودّة. وكذلك قولهم: رَمَيْت إليه بما في نفسي، وما في نفسي، بمعنًى واحد.

وقال الكسائي: تقول العرب: ألْقِهِ من يَدك، وألْقِ به من يَدِكَ، واطْرحه من يدك، واطْرَحْ به من يدك، كلام عربي صحيح. وقد قيل: إن في الكلام مفعولاً محذوفاً، فكأنه تعالى قال: تُلقون إليهم أسرار النبي (ص) بالمودة التي بينكم. وهذه الآية نزلت في قوم من المسلمين، كانوا يُخالُون قوماً من المنافقين، فيتَسَقَّطونهم أسرار النبي (ص)، استزلالاً لهم، واستغماراً لعقولهم.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ [الآية ٢] استعارة. لأنّ بسْط الألسن على الحقيقة لا يتأتّى كما يتأتّى بسْط الأيدي؛ وإنّما المراد إظهار الكلام السيّئ فيهم بعد زمّ الألسن عنهم، فيكون الكلام كالشيء الذي بُسط بعد انطوائه، وأُظهر بعد إخفائه.

وقد يجوز أيضاً أن يكون تعالى إنما

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

حَمَل بَسْط الألسن على بسط الأيدي، ليتوافق الكلام، ويتزاوج النظام؛ لأنّ الأيديَ والألسن مشتركة في المعنى المشار إليه: فللأيدي الأفعال، وللألسن الأقوال؛ وتلك ضررها بالإيقاع، وهذه ضررها بالسَّماع.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الآية ١٠] وقرأ أبو عمرو وحده (تَمَسَّكُوا) بالتشديد، وقرأ بقية السبعة ﴿تُمْسِكُواْ﴾ بالتخفيف. وهذه استعارة. والمراد بها: لا تُقيموا على نكاح المشركات، وخلاطِ الكافرات، فكَنى سُبحانه عن العلائق التي بين النساء والأزواج بالعِصَم، وهي ههنا بمعنى الحِبال، لأنّها تَصِل بعضَهم ببعض، وترْبُط بعضَهُم إلى بعض. وإنما سميت الحِبالُ عِصَماً، لأنها تعصم المتعلق بها والمستمسك بقوّتها. قال الشاعر:

وآخِذٌ مِن كل حيٍّ عِصَمَا

أي حبالاً. وهي بمعنى العهود في هذا الشعر.

وقال أبو عبيدة: العِصْمة: الحَبْل والسَّبَبُ؛ وقال غيره: العِصَمُ: العَقْد. فكأنه تعالى قال: وَلاَ تمسَّكوا بعَقْد الكوافر، أي بعقود نكاحهن. وأبو حنيفة يستشهد بهذه الآية على أنه لا عِدَّةَ في الحرْبيّة إذا خرجتْ إلى دار الإسلام مُسلمةً، وبانَتْ مِن زوجها بتخليفها له في دار الحرب كافراً. ويقول: إنّ في الاعتداد منه تَمسُّكاً بعصمة الكافر التي وقع النهي عن التمسّك بها. ويذهب أنّ الكوافر هُهُنا جمع فرقة كافرة، كما أن الخوارج جمع فرقة خارجة، ليصح حمل الكوافر على الذكور الإناث.

ويكون قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ﴾ خطاباً للنبي (ص) والمؤمنين. والمعنى: ولا تأمروا النساء بالاعتداد من الكفّار، فتكُونوا كأنكم قد أمرتموهُنّ بالتمسّكِ بِعِصَمِهِمْ.

وقال أبو يوسف[1]، ومحمد[2] يجب عليها العِدّة.

(١) أبو يوسف هو يعقوب بن إبراهيم الأنصاري الكوفي، صاحب الإمام أبي حنيفة النعمان. تولّى القضاء ببغداد أيام المهدي والهادي والرشيد؛ وهو أول من لقّب بقاضي القضاة في الإسلام، وأول من وضع الكتب في الفقه الحنفي. توفي سنة ١٨٢ هـ.

(٢) محمد هو محمد بن الحسن بن واقد الشيباني، كان إماماً في الفقة والأصول، وهو صاحب أبي حنيفة وناشر علمه ومذهبه. تولّى القضاء في زمن الرشيد، ثم صحبه إلى خراسان، فمات في الريّ سنة ١٨٩ هـ.

سورة الصَّف

٦١

أهداف سورة «الصف»(*)

سورة الصف سورة مدنية، آياتها ١٤ آية، نزلت بعد سورة التغابن.

وهي سورة تدعو الى وحدة الصف، وتماسك الأمة، وتحُث على الجهاد، وتُنَفِّر من الرياء، وتبيّن أنّ الإسلام كلمة الله الأخيرة الى الأرض، وأنّ رسالات السماء كانت دعوة هادفة لبناء الإنسان والدعوة إلى الخير والعدل، وقد أرسل الله سبحانه موسى (ع) بالتوراة، فلما انحرف اليهود عن تعاليم السماء، أرسل الله عيسى (ع) مجدّداً لناموس التوراة، ومبشراً برسالة محمد (ص).

وقد كانت رسالة محمد (ص) بالهدى ودين الحق، متممةً للرسالات السابقة، مشتملة على مبادئ الحق واليُسْر والعدل والمساواة، وقد كَرِه المشركون انتصار النور والخير، فحاولوا مقاومة هذه الدعوة وإطفاء نورها، ولكنّ الله أيّد الإسلام، حتّى طوى ممالك الفرس والروم، وعَمَّ المشارق والمغارب.

وقد حاولت الصليبيّة الحاقدة اجتياح بلاد الإسلام في فترات متعددة، من بينها الحرب الصليبية التي انتهت بهزيمة المعتدين وانتصار المسلمين، وَوَجَّهت الصليبيّة ضرباتها للمسلمين في الأندلس، وحاولت تصفية الاسلام أيّام الدولة العثمانية، وأطلقت على تركيا اسم «الرجل المريض»، والبلاد التي تحت يدها «تركة الرجل المريض». فلمّا قام كمال أتاتورك،

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

وأعلن إلغاء الخلافة الإسلامية، كَبّر له الغرب وهلّل، وتراجعت الجيوش الغربية من أمام تركيا، وجعلوا من أتاتورك بطلاً عملاقاً لقضائه على الخلافة الإسلامية.

وفي هذه الأيام، تَقْوى الحركة الإسلامية في تركيا، وتمتلئ المساجد والمدارس الإسلامية بالباحثين، وتشتد سواعد الحزب الإسلامي هناك، ويأبى الله إلاّ أن يُتِمَّ نوره ولو كره المشركون.

سبب نزول السورة

جمهور المفسرين على أن صدر هذه السورة نزل حينما اشتاق المسلمون إلى معرفة أحب الأعمال إلى الله، فأنزل الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾. فلمّا أخبرهم الله بأن أفضل الأعمال بعد الإيمان هو الجهاد في سبيل الله، كَرِه الجِهادَ قومٌ، وشَقَّ عليهم أمره، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾.

هدفان للسورة

لسورة الصف هدفان رئيسان:

الهدف الأول: الدعوة إلى الجهاد والحثّ عليه، والتحذير من كراهيته، والفِرارِ منه، وبيانُ ثوابه وفضله، وأنّه تجارة رابحة. وتبع ذلك ترسيخ العقيدة، ووجوب اتفاق الظاهر مع الباطن، ووجوب الطاعة للقائد، وتماسك الأمّة، وترابط بنيانها حتّى تصبح صفاً واحداً، مُحْكَم الأساس، قويّ الوشيجة والرِّباط، كأنّه بنيانٌ مرصوص.

فالآيات الأربع الأولى: دعوة الجهاد، والتحذير من الخوف والجبن، وبيان أن العقيدة السليمة تستتبع التضحية والفداء، حتّى يصبح جيش الإسلام قويّ البنيان، متلاحم الصفوف.

والآيات [١٠ ـ ١٢] صورة رائعة لفضل الجهاد وثوابه، فهو أربح تجارة، وأفضل سبيل للمغفرة ودخول الجنة، وهو باب النصر والفتح، والبُشْرَى للمؤمنين بالسيادة والعزّة.

والهدف الثاني: بيان وَحْدة الرسالات. فالرسالات الإلٰهية كلّها

دعوة إلى التوحيد، وثورة على الباطل، وإصلاحٌ للضمير، وإرساءٌ لمعالم الفضيلة، ومحاربةٌ للرذيلة. وقد دعا الرسلُ جميعاً إلى توحيد الله، وتكفَّل كلُّ رسول بإرشاد قومه وهدايتهم، ونُصْحِهِم الى ما فيه الخير، وتحذيرِهم من الانحراف والشر.

وفي سورة الصف نجد الآية الخامسة تبيّن رسالة موسى (ع) لقومه، وتَذْكُر عَنَتَ اليهود، وإيذاءهم لموسى، وتجريحهم له، وانصرافهم عن روحانيّة الدعوة إلى مادّية المال.

وفي الآية السادسة، نجد عيسى (عليه السلام) يجدّد أمر الناموس، ويَصيح باليهود صيحات ضارعة، ويَعِظُهُم ويدعوهم للإيمان، ويحُثُّهم على الصدقة، والعناية بالروح، وتقديم الخير لوجه الله.

والمسيح يُبَشِّر برسالة أحمد خاتَم المرسلين. فالرسالات كلّها حلَقاتٌ متتابعة في تاريخ الهداية والإصلاح، والإسلام كان ختام هذه الرسالات وآخِرَها، والمهيمنَ عليها؛ فقد حَفِظ تاريخها في القرآن، ودعا إلى الإيمان بالملائكة والكتب والرسل. قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة].

وروى البخاري في صحيحه أن رسول الله (ص) قال: «إنما مَثَلي وَمثَل الانبياء من قبلي كَمَثَلِ رجل بنى داراً فأتمّها وأكملها إلاّ موضعَ لَبِنَة، فجعل الناس يقولون لو وُضعت هذه اللبنة، فأنا هذه اللبنة وأنا خاتم الرسل».

وقال تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة].

وفي آخر آية من السورة دعوة للمسلمين أن ينصروا دين الله، كما نصر الحواريون دين عيسى، أيّام كان دينه توحيداً خالصاً؛ والعاقبة دائماً للمتقين.

والعبرة المستفادة من هذه الدعوة: استنهاض همّة المؤمنين بالدين الأخير، الأمناءِ على منهج الله في الأرض، وَرَثَةِ العقيدة والرسالة الإلٰهية، المختارين لهذه المهمّة الكبرى؛

استنهاض همتهم لنصرة الله، ونصرة دينه، ونصرة رسالته وشريعته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ [الآية ١٤].

المقصد الاجمالي للسورة

قال الفيروزآبادي: معظم مقصود سورة الصف هو:

«عتاب الذين يقولون ولا يعملون بمقتضى ما يقولون، وتشريف صفوف الغزاة والمصلّين، والتنبيه إلى جفاء بني إسرائيل، وإظهار دين المصطفى على سائر الأديان، وبيان التجارة الرابحة مع الرحمن الرحيم، والبشارة بنصر أهل الإيمان على الكفر والخذلان».

ترابط الآيات في سورة «الصف»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة الصفّ بعد سورة التّغابُن، ونزلت سورة التغابن بعد سورة التحريم، ونزلت سورة التحريم بعد سورة الحُجُرات، ونزلت سورة الحجرات فيما بين صلح الحُدَيْبِية وَغزوة تَبُوك، فيكون نزول سورة الصف في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾. وتبلغ آياتها أربع عشرة آية.

الغرض منها وترتيبها

غرض هذه السورة الحثّ على الجهاد في سبيل الله، وتوبيخ المنافقين على تقاعسهم عنه، وقد كان هذا ناشئاً من موالاتهم للمشركين، فكانوا يكرهون قتالهم لأنّهم يُبْطنون الشرك مثلهم، فالسياق فيها مع المنافقين كالسياق في السورة التي قبلها، ولهذا ذُكرت بعدها.

الحث على الجهاد
الآيات [١ ـ ١٤]

قال الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾، فذكر تسبيح كل شيء له ليسبّحه أولئك المنافقون ويؤمنوا به؛ ثمّ وبخهم على أنهم يُظهرون خلاف ما يُبطنون، فيقولون ما لا يفعلون،

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

ويتقاعسون عن الجهاد مع المسلمين. وذَكَر جلّ وعلا أنه يحبّ الذين يقاتلون في سبيله صفاً، فيثبتون في قتالهم ولا يتقهقرون. ثمّ حذرهم عاقبة زيغهم، أن يُزيغ قلوبهم فيصيروا إلى الكفر الصريح، كما أزاغ قلوب قوم موسى حينما زاغوا وآذوه، ثم رغّبهم في الإيمان بتبشير عيسى بالنبي الذي يدعوهم إليهم: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الآية ٦]. ثم ذكر سبحانه أنهم يريدون إطفاء نوره، وأنه سيُتمّ نوره ويُظهر دينه على الدين كله؛ ثم دلّهم على ما يُنجيهم في أُخراهم، وهو أن يَصْدُقوا في إيمانهم، ويجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم، ليغفر لهم ذنوبهم في أُخراهم وينيلهم نصراً قريباً في دنياهم، وهو فتح مكة؛ ثم أمَرهم أن يكونوا أنصاراً لله مخلصين كحواريي عيسى حينما قال لهم: مَنْ أنصاري إلى الله؟ فقالوا: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)﴾.

المبحث الثالث

أسرار ترتيب سورة «الصف»(*)

أقول: في سورة الممتحنة ذَكَر، سبحانه، الجهاد في سبيل الله، وبَسَطَه في هذه السورة أبلغ بَسْط.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

لغة التنزيل في سورة «الصف»(*)

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾.

كأنّ أصله: «يريدون أن يطفئوا نور الله» كما جاء في سورة براءة، وكأن هذه اللام زيدت مع فعل الإرادة.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

المعاني اللغوية في سورة «الصف»(*)

قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٣] أي: كَبُرَ مَقْتُكُم مَقْتاً، ثم قال: ﴿أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ أي: قولُكم.

وقال: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ [الآية ١٣] أي: وتجارةً أُخْرَى

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

لكل سؤال جواب في سورة «الصف»(*)

إن قيل: ما فائدة (قد) في قوله تعالى: ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الآية ٥].

قلنا: فائدتها التأكيد، كأنه قال: وتعلمون علماً يقيناً لا شبهة لكم فيه. هذا جواب الزمخشري: وقال غيره: فائدتها التكثير، لأن (قد) مع الفعل المضارع تارة تأتي للتقليل كقولهم: إن الكذوب قد يَصْدُق، وتارة تأتي للتكثير كقول الشاعر:

قَد أَغْسَفَ النّازِحُ المَجْهُودُ مِغْسِفَةً
في ظِلِّ أَخْضَرَ يدْعُو هامةَ البُومِ

وإنما يتمدّح بما يكثر وجوده منه، لا بما يقلّ.

فإن قيل: لِمَ قال عيسى (ع) كما ورد في التنزيل: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الآية ٦] ولم يقل محمّد، ومحمّد أشهر أسماء النبي (ص)؟

قلنا: إنّما قال أحمد، لأنه مذكور في الإنجيل بعبارة تفسيرها أحمد لا محمّد؛ وإنما كان كذلك، لأنّ اسمه في السماء أحمد وفي الأرض محمد، فنزل في الإنجيل اسمه السماوي. وقيل إن أحمد أبلغ في معنى الحمد من محمّد، من جهة كونه مبنيّاً على صيغة التفضيل. وقيل محمّد أبلغ من جهة كونه على صيغة التكثير.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾ ولم يقل

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

سبحانه هذه، والمشار إليه البيّنات، وهي مؤنثة؟

قلنا: معناه هذا الذي جئت به، فالإشارة إلى المأتيّ به.

فإن قيل: ما وجه صحة التشبيه، وظاهره تشبيه كونهم أنصار الله، بقول عيسى عليه السلام كما ورد في التنزيل: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الآية ١٤].

قلنا: التشبيه محمول على المعنى، تقديره: كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصاراً لعيسى (ع) حينما قال لهم من أنصاري إلى الله.

المعاني المجازية في سورة «الصف»(*)

في قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الآية ٥] استعارة. وكنا أغفلنا الكلام على نظيرها في آل عمران. وهو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [الآية ٨] لأنّ ذلك أدخل في باب الكلام على الآي المتشابهة، وأبعد من الكلام على الألفاظ المستعارة. إلاّ أنّنا رأينا الإشارة إلى هذا المعنى هُهنا، لأنّه ممّا يجوز أن يَجْري في مضمار كتابنا هذا، فنقول:

إنّ المراد بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ أيْ لا تحمّلنا من التكاليف ما لا طاقة لنا به، فَتَزيغَ قلوبُنا، أي تميلَ عن طاعتك، وتَعْدِلَ عن طريق مَرْضاتك، فتصادفُها زائغة، أو يَحْكُمَ عليها الزَّيْغ عند كونها زائغة.

وقد يجوز أن يكون المرادُ بذلك: أي أدِمْ لنا ألْطَافَك وعِصَمَك لتدومَ قلوبُنا على الاستقامة، ولا تزيغ عن مناهج الطاعة. وحَسُنَ أن يُقال: لا تُزِغْ قُلوبنا بمعنى الرّغبة في إدامة الألطاف، لَمّا كان إعدام تلك الألطاف في الأكثر يَكُونُ عنه زَيْغُ القلوب، ومواقعة الذنوب.

وأما قوله تعالى في هذه السورة: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، فهو أوضح فيما يذهب إليه من الأول، لأنه، سبحانه، لمّا زاغوا عن الحق، حَكَم عليهم بالزَّيْغ عنه، وحُكمُهُ بذلك أن يأمر أولياءه بذمّهم ولَعْنهم والبراءة منهم، عقوبةً لهم على ذميم فعلهم.

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

وقد يجوز أن يكون معنى ذلك أنّهم لمّا زاغوا عن الحقّ خَذَلَهم وأبْعدهم وخلاهم واختيارَهُم، وأضاف، سبحانه، الفعل إلى نفسه من طريق الاتّساع، لَمّا كان وقوع الزَّيغ منهم مقابلاً لأمره لهم باتّباع الحقّ، وسلوك الطريق النهج. كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ [المؤمنون/ ١١٠] أي وَقَع نسيانكم لذكري، في مقابلة أمر أولئك العِباد النّاصحين لكم بأن تسلكوا الطريق الأسلم، وتتّبعوا الدين الأقوم.

سورة الجُمُعَة

٦٢

أهداف سورة «الجمعة»(*)

سورة الجمعة سورة مدنية، وآياتها ١١ آية. نزلت بعد سورة يوسف.

وقد عُنيت السورة بتربية المسلمين وجَمْعهم على الحق والإيمان، ودعوتهم إلى المحافظة على صلاة الجمعة، والامتناع عن الانشغال بغيرها من اللهو أو البيع، وقد مَهّدت لذلك ببيان أنّ كلّ شيء يسبّح بحمد الله سبحانه. وقد مَنَّ الله، جل جلاله، على العرب بإرسال نبيّ الهُدَى والرّحمة لِيرشدهم إلى الخير، ويأخذ بأيديهم إلى الطهارة والفضيلة. وقارنت السورة بين المسلمين واليهود، وعَيّرت اليهود بإهمالهم تعاليمَ التوراة وإعراضهم عنها، وشبّهتهم بالحمار يحمل كتب العلم ولا يُفيد منها، وهو تشبيه رائع معناه أن التوراة بَشّرت بنبيّ الله محمد (ص)، ودعت أهلها إلى الإيمان به، لكنهم لم ينتفعوا بهداية التوراة، فَحَرَموا أنفسهم الانتفاع بأبلغ نافع، مع قرب هذا الانتفاع منهم.

تسلسل أفكار السورة

بدأت السورة بمطلع رائع، يقرر حقيقة التسبيح المستمرّ يَصدُر عن كلّ ما في الوجود، بقوله تعالى ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾.

جاء في تفسير النسفي: «التسبيح إمّا أن يكون تسبيح خِلْقة، يعني إذا نظرت الى كلّ شيء دلّتك خِلْقته على وحدانيّة الله، سبحانه، وتنزيهه عن الأشباه؛ أو

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

تسبيح معرفة بأن يجعل الله بلطفه في كلّ شيء ما يعرف به الله تعالى وينزّهه؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء/ ٤٤]؛ أو تسبيح ضرورة، بأن يجري الله التسبيح على كلّ جوهر من غير معرفته بذلك».

وبيّنت السورة أن الله قد اختار العرب ليُرسِل فيهم نبيَّ آخِر الزمان، ليطهّرهم ويعلّمهم القرآن والأحكام الشرعية، وحسن تقدير الأمور بعد أن كانوا في الجاهلية في ضلال وكفر وانحلال [الآية ٢].

وقد وصف جعفر بن أبي طالب ضلال الجاهلية للنجاشي ملك الحبشة، فقال:

«أيها الملك، كُنّا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل المِيتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القويّ منا الضعيف. فكنّا على ذلك، حتّى بعث الله إلينا رسولاً لنوحّده ولنعبده، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان؛ وأَمَرَنا بصدق الحديث، وأداء الامانة، وصِلَة الرَّحِم، وحُسْن الجوار، والكَفّ عن المحارم والدماء.. ونهانا عن الفواحش وقول الزُّور، وأكل مال اليتيم، وقذف المُحْصَنات؛ وأَمَرَنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً؛ وأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصيام».

لقد اختار الله الجزيرة العربية، لتحمل رسالة الإصلاح، وليمتدّ هذا النور الهادي إلى ممالك الفرس والروم، حيث كانت هذه البلاد العريقة قد انغمست في الترف والانحلال...

«وبَيّنَ مظاهر الفساد الشامل، وُلد الرجل الذي وَحّد العالم جميعه، وقد كان اليهود يزعمون أنّهم شعب الله المختار، وأنهم هم أولياؤه من دون الناس، فَبَيَّنت الآيات أنّهم لم يعودوا صالحين لحمل رسالة السماء؛ فقد أخلدوا إلى الدنيا وكرِهوا الموت، لأنهم لم يقدّموا عملاً صالحاً، بل قدّموا الدّسّ والخداع والوقيعة: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مطّلع عليهم، وسيَجْزيهم على عملهم [الآيات ٥ ـ ٨].

والمقطع الأخير من السورة يتحدّث عن صلاة الجمعة، وهي فريضة أسبوعية يتلاقى المسلمون فيها لتعلّم أمور دينهم، وتنظيم حياتهم، وتفقّد

شؤونهم. وهي وسيلة للعبادة والطاعة، وصفاء النفس، وطهارة الروح.

والإسلام دينٌ ودنيا، عقيدةٌ وسلوك، شرائع وآداب، علم وعمل، عبادة وسيادة.

فإذا انتهت صلاة الجمعة خرج المسلم باحثاً عن رزقه، نشيطاً في عمله؛ فعبادة الله تكون في المسجد بالصلاة، وتكون خارج المسجد بالتجارة والزراعة وطلب القوت من حلال.

وفي الحديث الصحيح: «إنّ لِرَبِّكَ عليك حقّاً، وإنّ لبدنك عليك حقّاً، وإنّ لزوجك عليك حقّاً، فأعطِ كلّ ذي حقّ حقّه».

وكان عراكُ بْنُ مالك، إذا صلى الجمعة، انصرف فوقف على باب المسجد، فقال: «اللّهمّ إنّي أحببت دعوتك، وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك، وأنت خير الرازقين».

ترابط الآيات في سورة «الجمعة»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة الجمعة بعد سورة الصفّ، ونزلت سورة الصف فيما بين صلح الحُدَيبِيَة وغزوة تَبُوك، فيكون نزول سورة الجمعة في ذلك التاريخ أيضاً؛ وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى في الآية التاسعة منها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾. وتبلغ آياتها إحدى عَشْرَةَ آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة الحثّ على العمل بالعلم، وتوبيخ من لا يعمل بعلمه من المنافقين واليهود، ولهذا ـ والله أعلم ـ جُعِلَت هذه السورة بعد سورة الصفّ، لأنّها توافقها وتوافق السور التي قبلها في هذا السياق.

الحث على العمل بالعلم
الآيات [١ ـ ١١]

قال الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١﴾، فذكر سبحانه تسبيح ذلك له، وأنه بعث في الأمّيّين رسولاً يعلّمهم ويزكّيهم، ليجمعوا بهذا بين العلم والعمل به. ثمّ ذمّ اليهود الذين يَعْلَمون التوراة ولا يعملون بها، فجعل مَثَلَهُمْ في حَمْلِها وعدم الانتفاع بها، كَمَثَلِ الحمار يحمل أسفاراً؛ ثمّ ذكر، جلَّ وعلا، ما يتّكلون عليه في ترك العمل، وهو زعمهم أنهم أولياؤه من

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

دون الناس، فلا يؤاخذهم كما يؤاخذ غيرهم، فَأَمَرَهُم إن كانوا صادقين في هذا أن يَتَمَنَّوُا الموت ليثبتوا ما يزعمونه من حُسْن عاقبتهم؛ وذكر أنهم لا يتمنّونه أبداً لخوفهم من أعمالهم، وأنّه لا بدّ من هذا الموت الذي يَفِرُّون منه لينبئهم بما كانوا يعملون؛ ثم أمر المنافقين ومن يتباطأ مثلهم عن العمل، أن يَسْعَوْا إلى صلاة الجمعة عند النداء لها، وأن يتركوا عند سماعهم نداءها ما يتعاطونه من البيع، فإذا أدَّوْها خرجوا إلى ما كانوا عليه من أعمال الدنيا؛ ثمّ ذَمَ ما كان يحصل منهم من الخروج قبل أدائها، عند حضور تجارة أو نحوها، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

أسرار ترتيب سورة «الجمعة»(*)

أقول: ظهر لي في وجه اتّصالها بما قبلها: أنه تعالى لمّا ذكر في سورة الصفّ حال موسى (ع) مع قومه، وأذاهم له، ناعياً عليهم ذلك(*) ذكر في هذه السورة حال الرّسول (ص)، وفضل أمّته، تشريفاً لهم، ليظهر فضل ما بين الأمّتين، ولذا لم يعرض فيها لذكر اليهود.

وأيضاً لمّا ذكر، سبحانه، هناك حكاية عن قول عيسى (ع): ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف/ ٦]. قال هنا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾. إشارة إلى أنه (ص) هو الذي بشّر به عيسى (ع). وهذا وجه حسن في الربط.

وأيضاً، لما ختم سبحانه تلك السورة بالأمر بالجهاد، وسمّاه تجارة، ختم هذه بالأمر بالجمعة، وأخبر أنها خير من التجارة الدنيوية.

وأيضاً: فتلك سورة الصفّ، والصفوف تشرع في موضعين: القتال، والصلاة، فناسب تعقيب سورة صف القتال بسورة صلاة تستلزم الصف ضرورة، وهي الجمعة، لأنّ الجماعة شرط فيها، دون سائر الصلوات.

فهذه وجوه أربعة فتح الله بها.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

(*) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾ [الصف/ ٥]. وذكر في الصف عن بني اسرائيل: أنهم كذّبوا عيسى، وكذبوا على الله، وأرادوا أن يطفئوا نور الله ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾، في الآيات[٦ ـ ٩]. ثم ذكر هنا تعليل هذا التكذيب بالغباء، وأبطلَ حجتهم في أنهم شعب الله المختار [الآيات ٥ ـ ٧].

مكنونات سورة «الجمعة»(*)

١ - ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾.

أخرج البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً: أنهم قوم سَلْمان[1].

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن مُجاهد، قال: هم الأعاجم[2].

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِماتِ الأقران في مُبْهَمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) الفارسي رضي الله عنه، والحديث في «صحيح البخاري»(٤٨٩٧) في التفسير.

(٢) الأثر في «تفسير الطبري» ٢٨/ ٦٢، وذكر أبو جعفر الطبري رحمه الله قولاً آخر عن مجاهد وابن زيد: أن المَعْنيَّ بذلك جميع من دخل في الإسلام من بعد النبي (ص)، كائناً من كان إلى يوم القيامة؛ وهذا القول هو الراجح عند الطبري، لأن الله تعالى لم يخصص منهم نوعاً دون نوع، فكلٌّ لاحق بهم، أي من الصحابة، فهو من الآخرين الذين لم يكونوا في عداد الأولين، الذين كان رسول الله (ص) يتلو عليهم آيات الله جلّ جلاله.

المعاني اللغوية في سورة «الجمعة»(*)

قال تعالى: ﴿أَسْفَارًا﴾ [الآية ٥] واحدها «السِّفر».

وقال بعض النحويين لا يكون لـ «الأسْفارِ» واحد كنحو «أبابيل» و«أساطِير»، ونحو قول العرب: «ثَوْبٌ أَكْبَاشٌ» وهو الرديء الغزل، و «ثَوْبٌ مِزَقٌ» للمتمزّق.

وقال تعالى: ﴿مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ [الآية ٩] أي والله أعلم، مِنْ صَلاةِ يَوْمِ الجُمُعَةِ..

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ.

لكل سؤال جواب في سورة «الجمعة»(*)

إنْ قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٩] والسعي: العَدْوُ؛ والعَدْوُ إلى صلاة الجمعة، وإلى كل صلاة، مكروه؟

قلنا: المراد بالسعي القصد. وقال الحسن: ليس هو السعي على الأقدام، ولكنه على النيّات والقلوب، ويؤيّد قولَ الحسن قولُه تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم]، وقول الداعي في دعاء القنوت: وإليك نسعى ونَحْفِد[1]، وليس المراد به العدو والإسراع بالقَدَم.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الآية ١١]. والمذكور شيئان اللهو والتجارة؟

قلنا: قد سبق جواب هذا في سورة التوبة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة/ ٣٤] والذي يؤيّده هنا ما قاله الزّجاج معناه: «وإذا رأوا تجارة انفضُّوا إليها» «أو لهواً انفضُّوا إليه»، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه.

وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه (إليهما) بضمير التثنية، وعليه فلا حذف.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

(١) حَفَدَ: خفّ في العمل، وأسرع.

المعاني المجازية في سورة «الجمعة»(*)

في قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾ استعارة. والمراد: ولا يتمنَّوْن الموت أبداً، خوفاً مما فَرَط منهم من الأعمال السيئة، والقبائح المُجْتَرَحَة. ونَسَب تعالى تلك الأفعال إلى الأيدي، لغلبة الأيدي على الأعمال، وإن كان فيها ما يعُمل بالقلب واللسان.

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

سورة المُنَافِقون

٦٣

أهداف سورة «المنافقون»(*)

سورة «المنافقون» سورة مدنيّة، آياتها ١١ آية نزلت بعد سورة الحج.

النفاق هو إظهار الإسلام أمام المسلمين، وإضمار غير الإسلام. والنَّفَق بفتحتين سَرَبٌ في الأرض يكون له مخرج من موضع آخر، ونافَقَ اليَرْبُوعُ إذا أتى النّافِقاء، أي دخل من مكان وخرج من مكان، ومنه قيل «نافَقَ الرجل» إذا دخل في الإسلام أمام المسلمين، ودخل في عداوة الإسلام أمام غير المسلمين.

والنفاق قسمان: القسم الأول: نفاق العقيدة، وهو إظهار الإيمان وإخفاء الكفر.

والقسم الثاني: نفاق العمل، وهو الرياء والسمعة والتظاهر وابراز الأمور على غير حقيقتها.

النفاق في المدينة

لم يظهر النفاق في مكّة، لأن المسلمين كانوا مستضعفين، وكان أهل مكة يعلنون لهم العداء، ويجابهونهم بالإيذاء. ثمّ هاجر النبيّ (ص) إلى المدينة، والتفّ حوله الأنصار والمهاجرون، وقويت شوكته بوحدة المسلمين وتماسكهم، وظلّ الإسلام يتفوّق يوماً بعد يوم، ويدخل فيه وجوه أهل المدينة من رجال الأوس والخزرج ووجهائهم وأهل العصبية فيهم؛ عندئذ رأى بعض المنافقين أن يدخلوا في

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ _ ١٩٨٤.

الإسلام مجاملة لأهله، وأن يبيّتوا الكيد والخداع للمسلمين.

وقد قبل النبي (ص) من الناس ظواهرهم، وترك بواطنهم الى الله. ولكن الأحداث كانت تعرّف المسلمين بهؤلاء المنافقين، فإذا وقع المسلمون في شدة أو انهزموا في معركة، تجرّأ هؤلاء المنافقون على تجريحهم والتشهير بهم جهاراً نهاراً. وإذا أنعم الله على المؤمنين بالنصر، اختبأ المنافقون في جحورهم، وغيّروا طريقتهم، وانتقلوا من باب المواجهة إلى الكيد والدّس في الخفاء.

وكان اليهود في المدينة يكوّنون جبهة قوية، وقد ساندوا المنافقين وشجّعوهم، وكوّن الطرفان جبهة متّحدة لمناوأة الإسلام والمسلمين.

وكان عبد الله بن أُبَيّ بن سلول زعيم المنافقين بالمدينة، وكان من وجهاء الأنصار، وكان قومه ينظمون له الخرز ليتوّجوه ملكاً عليهم. فلمّا جاء الإسلام للمدينة، وتعاظمت قوّة المسلمين يوماً بعد آخر، وأصبح النبيُّ الأمين صاحب الكلمة النافذة، والأمر المطاع، اشتدّ حقد عبد الله بن أُبَيّ لضياع الملك من بين يديه، وكَوّنَ جبهة للنفاق تشيع السوء والفتنة، وتدبّر الكيد والأذى للمسلمين.

وشاء الله، سبحانه، أن يمتحن المسلمين بوجود اليهود في المدينة، وبوجود المنافقين فترة طويلة صاحبت نشوء الدعوة بالمدينة. ولم يشأ الله، جل جلاله، أن يعرّف النبي (ص) بأسمائهم إلاّ في آخر حياته، وقد أخفى النبي (ص) أسماءهم عن الناس، وأعلم واحداً فقط من الصحابة بها، هو النعمان بن مقرن، ليظلّ أمرهم مستوراً.

وكان بعضهم ينكشف أمره من سلوكه وفعله، وقوله، وقسمات وجهه، وتعبيراته. قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [محمد].

قصة نزول السورة

في كثير من كتب التفسير والسيرة: أن هذه السورة نزلت في أعقاب غزوة بني المصطلق، وقد انتصر فيها المسلمون، وغنِموا غنائم كثيرة، وقد وقعت في شعبان من السنة الخامسة للهجرة (ديسمبر ٦٢٦م). وبعد

المعركة ازدحم على الماء رجلان أحدهما أجير لعمر بن الخطاب، وهو «جهجاه بن سعيد»، والثاني حليف بني عوف بن الخزرج، وهو سنان الجهني وتضاربا. فقال جهجاه يا لَلمهاجرين، وقال سنان يا لَلأنصار، فاجتمع عليهما المتسرعون من المهاجرين والأنصار حتى كادوا يقتتلون، وأوشكت أن تقوم الفتنة بين المهاجرين والأنصار. فلمّا سمع رسول الله (ص) الصراخ، خرج مسرعاً يقول: «ما بال دعوى الجاهلية»؟ فأخبروه الخبر، فصاح غاضباً: «دعوا هذه الكلمة، فإنّها فتنة» وأدرك الفريقين، فهدّأ من ثورتهما، وكُلِّم المضروب حتى أسقط حقّه؛ وبذلك سكنت الفتنة، وتصافى الفريقان.

ولكن عبد الله بن أُبَيّ عزّ عليه أن تنطفئ هذه الشرارة قبل أن تحدث حريقاً بين المسلمين، وأن تموت هذه الفتنة قبل أن تذهب بما في صفوف المسلمين من وحدة وائتلاف، فأخذ يُهَيِّج من معه من الأنصار، ويثير ضغينتهم ضدّ المهاجرين، وجعل يقول في أصحابه:

«والله ما رأيت كاليوم مذلّة. لقد نافرونا وكاثرونا في بلدنا، وأنكروا مِنّتنا، والله ما عدنا وجلابيب قريش هذه إلاّ كما قال القائل: سَمِّنْ كَلْبَكَ يأكُلْكَ. . «لئن رَجَعْنا إلى المدينةِ لَيُخْرِجَنّ الأعزُّ منها الأذلَّ» يقصد بالأعز نفسه، وبالأذلّ رسول الله (ص).

ثم أقبل ابن أُبَيّ على من حضره من قومه يلومهم ويعنّفهم فقال: «هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم في بلادكم، وأنزلتموهم منازلكم، وآسيتموهم في أموالكم حتّى استغنوا. أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير بلادكم. ثمّ لم ترضوا ما فعلتم حتّى جعلتم أنفسكم أغراضاً للمنايا، فقتلتم دونهم، فأيتمتم أولادكم وقللتم وكثروا، فلا تنفقوا على من حوله حتّى ينفضُّوا».

وكان في القوم زيد بن أرقم، وهو يومئذ غلام لم يبلغ الحلم، أو قد بلغ حديثاً، فنقل كلام ابن أُبَيٍّ إلى الرسول (ص)، فتغيّر وجه رسول الله (ص)، وتأثّر من معه من المهاجرين والأنصار، وشاع في الجيش ما قاله ابن أُبيّ، حتّى ما كان للناس حديث غيره، وقال عمر للنبيّ (ص): يا رسول الله مر بلالاً فليقتله، وهنا

ظهر النبيّ (ص) ـ كدأبه ـ بمظهر القائد المحنّك والحكيم البعيد النظر، إذ التفت إلى عمر وقال: «فكيف إذا تحدّث الناس أنّ محمّداً يقتل أصحابه»؟ ولكنه قدّر في الوقت نفسه أنه إذا لم يتّخذ خطة حازمة فقد يستفحل الأمر. لذلك أمر أن يؤذّن في الناس بالرحيل، في ساعة لم يكن يرتحل فيها المسلمون.

وترامى الى ابن أُبيّ ما بلغ النبيّ (ص) عنه، فأسرع الى حضرته ينفي ما نسب إليه ويحلف بالله ما قاله ولا تكلّم به، ولم يغيّر ذلك من قرار النبيّ بالرحيل.

قال ابن اسحٰق: «فلمّا استقلّ رسول الله (ص) وسار، لقيه أُسَيْد بن الحُضَيْر، فحيّاه بتحية النبوّة وسلم عليه، ثمّ قال: يا نبيّ الله، والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها. فقال رسول الله (ص): أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ قال: وأيّ صاحب يا رسول الله؟ قال: عبد الله بن أبيّ. قال وما قال؟ قال: زعم أنه إن رجع المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذلّ. قال أسيد: فأنت يا رسول الله، والله، تخرجه منها إن شئت، هو، والله، الذليل وأنت العزيز، في عزٍّ من الرحمن ومنعة المسلمين. قال أسيد: يا رسول الله ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإنّ قومه لينظمون له الخرز ليتوّجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته مُلْكاً.

ثمّ مشى رسول الله (ص) بالناس يومهم ذاك حتّى أمسى، وليلتهم حتّى أصبح، وصَدْرَ يومهم ذاك حتّى آذتهم الشمس؛ ثمّ نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مسّ الأرض فوقعوا نياماً. وإنّما فعل ذلك رسول الله ليشغل الناس عن كلام عبد الله بن أُبيّ.

ونزلت سورة (المنافقون) في ابن أبيّ، ومن كان على مثل أمره. ولمّا نزلت السورة قال رسول الله (ص) : يا غلام، إنّ الله قد صدّقك وكذّب المنافقين.

ولما ظهر كَذِبُ عبد الله بن أبيّ، قيل له: قد نزلت فيك آي شداد، فاذهب الى رسول الله يستغفر لك، فلوى رأسه وقال: أمرتموني أن أؤمن فآمنت، وأمرتموني أن أزكّي مالي فزكّيت، وما بقي إلاّ أن أسجد لمحمد، فنزل فيه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ

لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ .

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبيّ ما كان من أمر أبيه، فأتى رسول الله (ص) فقال: يا رسول الله، إنّه قد بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبيّ فيما بلغك عنه؛ فإن كنت لا بدّ فاعلاً فَمُرْني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد عِلِمَتِ الخزرجُ ما كان لها من رجل أبرّ بوالده مني، وإنّي أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار؛ فقال رسول الله (ص) بل نترفّق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا.

مع السورة

وصفت الآيات الأربع الأولى من السورة رياء المنافقين، وكشفت خداعهم: إنهم يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر، ويسارعون بالشهادة لله سبحانه بالوحدانية ولمحمد (ص) بالرسالة، وهم كاذبون في هذه الشهادة، لأنّها لا تطابق عقيدتهم، ولا توافق ما يضمرونه في قلوبهم [الآية ١]. وكانوا يحلفون بالله كذباً، ويتحصّنون بهذا الإيمان، وبئست أفعال الرجال، الكذب والأيمان الفاجرة [الآية ٢].

لقد تكرّر نفاقهم، وطبع الله على قلوبهم، فلا ينفذ اليهم الهدى والإيمان [الآية ٣].

وكان فيهم أقوام صِباحُ الوجوه، أشدّاء البنية، فُصَحاء الألسنة؛ فإذا تكلّموا أعجبوا السّامع بكلامهم المعسول، ولكنّ واقعهم لا يوافق ظاهرهم؛ وإن عداوتهم ضاربة، فاحذرهم واتّق جانبهم في حياتك(*)، فانهم سيلقون مصيرهم المحتوم بالهلاك والنكال [الآية ٤].

وتشير الآيات [٤ ـ ٨] إلى ما حدث من عبد الله بن أبيّ بن سلول، في أعقاب غزوة بني المصطلق، وقد مرّت قصتها.

ولمّا انكشف أمره، دعاه الناس ليستغفر له الرسول الأمين، فأعرض ولوى وجهه، خوفاً من مواجهة الرسول بالحقيقة. [الآية ٥].

(*) الخطاب موجه إلى الرسول محمد، عليه الصلاة والسلام.

وكان ابنُ أُبَيّ قد طلب من بعض الأنصار أن يمسكوا نفقتهم ومساعدتهم عن المهاجرين، حتّى ينفضُّوا عن النبيّ الكريم، فذكر القرآن أنّ خزائن الله عامرة، وخيره لا ينفد، وهو الرزّاق ذو القوّة المتين [الآية ٧].

وكان ابن أُبَيّ يُبَيِّت كَيْداً مع أتباعه، ويتوعّد بأن يخرج النبيّ من المدينة ذليلاً؛ فبيّن الله سبحانه أنّ العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين بالإيمان، وبمساعدة الرحمن، وبعون الله القويّ المتين؛ ولكنّ المنافقين لا يفقهون هذه المعاني الكريمة [الآية ٨].

أمّا المقطع الأخير في السورة، ويشمل الآيات [٩ ـ ١١]، فإنّه يتوجّه إلى المؤمنين بالنداء ألاّ تشغلهم أموالهم ولا أولادهم عن تذكّر ربهم، والقيام بحقّه، جلّ وعلا، ومرضاته، وتأمرهم بالصدقة والزكاة وعمل الخير، فالله باعث الرزق، وله الحمد في الأولى والآخرة. فأنفِقْ أيها الإنسان وأنت صحيح؛ ولا تمهل، حتّى إذا بلغت الروح الحلقوم تمنيت العودة للدنيا، لإخراج الصدقة وعمل الصالحات؛ ولكن الأجل إذا جاء لا يتأخّر لحظة، بل يساق الإنسان الى الخبير العليم، جزاء ما قدّم.

وهكذا تختم السورة بهذه الدعوة إلى الإخلاص لله سبحانه، وامتثال أوامره، فهو، جلّت قدرته، مطّلع وشاهد، وهو الحكيم العادل.

المعنى الاجمالي للسورة

قال الفيروزآبادي: معظم مقصود السورة: تقريع المنافقين وتبكيتهم، وبيان ذلّهم وكذبهم، وذكر تشريف المؤمنين وتبجيلهم، وبيان عزّهم وشرفهم، والنهي عن نسيان ذكر الحقّ تعالى، والغفلة عنه، والإخبار عن ندامة الكفّار بعد الموت، وبيان أنه لا تأخير ولا إمهال بعد حلول الأجل، في قوله تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

ترابط الآيات في سورة «المنافقون»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة «المنافقون» بعد سورة الحجّ، وكان نزولها بعد غزوة بني المصطلق في السنة الخامسة من الهجرة، فتكون من السُور التي نزلت فيما بين صلح الحُدَيْبِيَة وغزوة تَبُوك.

وقد سمِّيت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى في أولها: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الآية ١] وتبلغ آياتها إحدى عشرة آية.

الغرض منها وترتيبها

نزلت هذه السورة، فيما كان من مؤامرة المنافقين على المهاجرين، في رجوعهم من غزوة بني المصطلق؛ وذلك أنهم تآمروا على إخراجهم من المدينة بعد رجوعهم إليها، وكان زيد بن أرقم قد حضر مؤامرتهم فأخبر النبيّ (ص) بها. فلمّا بلغهم ذلك ذهبوا إليه، فأنكروها على عادتهم، فنزلت هذه السورة لفضح مؤامرتهم، وتصديق زيد بن أرقم. ولا شك في أنّ سياقها، في هذا، سياق سورة الجمعة والسور المذكورة قبلها، وهذا هو وجه المناسبة في ذكرها بعد سورة الجمعة.

مؤامرة المنافقين على المهاجرين الآيات [١ ـ ١١]

قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ فكذبهم في ذلك؛ ثمّ ذكر سبحانه أنهم يتخذون هذه الأيمان الكاذبة وقاية لهم؛ ثمّ ذكر أنّ من يراهم تعجبه أجسامهم، فإذا خبرهم وجدهم كالخُشُب المسنَّدَة في عدم العقل، وهم جبناء يحسبون كلّ صيحة عليهم؛ ثم ذكر ما كان من مؤامرتهم حينما نَهَوْا من حضرهم من الأنصار أن يُنفقوا على المهاجرين حتّى ينفضُّوا من المدينة، واتّفقوا على أنهم إذا رجعوا إليها يخرجونهم منها؛ ثمّ نهى المؤمنين أن تلهيهم أموالهم وأولادهم كما ألهت أولئك المنافقين، وأن ينفقوا ممّا رزقهم، سبحانه، ولا يسمعوا لهم، حتّى لا يأتي أحدهم الموت فيتمنّى لو يتأخر أجله، ليتدارك ما فاته من الصدقة: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

أسرار ترتيب سورة «المنافقون»(*)

أقول: وجه اتّصالها بما قبلها: أنّ سورة الجمعة ذُكر فيها المؤمنون، وهذه ذُكر فيها أضدادهم، وهم المنافقون. ولهذا أخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة: أنّ رسول الله (ص) كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة، يحرّض بها المؤمنين، وبسورة «المنافقون» يقرّع بها المنافقين.

وتمام المناسبة: أن السورة التي بعدها فيها ذكر المشركين؛ والسورة التي قبل الجمعة فيها ذكر أهل الكتاب من اليهود والنصارى[1]؛ والتي قبلها، وهي الممتحنة فيها ذكر المعاهدين من المشركين[2]؛ والتي قبلها، وهي الحشر فيها ذكر المعاهدين من أهل الكتاب[3]، فإنّها نزلت في بني النضير، حين نبذوا العهد وقوتلوا.

وبذلك اتّضحت المناسبة في ترتيب هذه السور الستّ هكذا، لاشتمالها على أصناف الأمم، وفي الفصل بين المسبّحات بغيرها[4] لأنّ إيلاء سورة المعاهدين من أهل الكتاب بسورة المعاهدين من المشركين أنسب من

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

(١) وذلك في قوله تعالى من «التغابن» ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ [الآية ٥ الى ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝﴾.

(٢) وذلك في الآيات [٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠].

(٣) وذلك في الآيتين [٨، ٩].

(٤) يعني الفصل بين الحشر، وأولها: سبّح. والتغابن وأولها: يسبّح، بالممتحنة والصف والجمعة والمنافقون.

غيره. وإيلاء سورة المؤمنين بسورة المنافقين أنسب من غيره.

فظهر بذلك أن الفصل بين المسبّحات التي هي نظائر لحكمة دقيقة من لدن حكيم خبير، فلله الحمد على ما فهّم وألهم.

هذا وقد ورد عن ابن عباس في ترتيب النزول: أنّ سورة «التغابن» نُزلت عقب الجمعة[١]، وتقدّم نزول سورة «المنافقون» فما فصل بينهما إلاّ لحكمة، والله أعلم.

(١) الإتقان: ١/ ٩٧ وهو عن جابر بن زيد أيضاً. وجابر أحد علماء التابعين بالقرآن.

مكنونات سورة «المنافقون»(*)

١ ـ ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٧].

وأيضاً:

٢ ـ ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [الآية ٨].

قيل نزلت هاتان الآيتان حكاية على لسان عبد الله بن أبيّ بن سلُول. كما أخرجه البخاري[١] وغيره، عن زيد بن أرقم.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحماتِ الأقران في مُبْهمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) انظر «صحيح البخاري» كتاب التفسير، سورة «المنافقون» باب قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ والأبواب السبعة التي بعده.

المعاني اللغوية في سورة «المنافقون»(*)

قال تعالى: ﴿خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [الآية ٤] ويقرأ بعضهم «الخُشْبُ».

وقال تعالى: ﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ [الآية ٥] لأن كلام العرب اذا كان في السُخْرِيّ أو في التكثير قيل (لَوّى لِسَانَه) و«رأسَه». وخفّف بعضهم، واحتج بقول الله عز وجل: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ [النساء/٤٦].

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

لكل سؤال جواب في سورة «المنافقون»(*)

إن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ [الآية ١]؟

قلنا: لو قال تعالى: قالوا نشهد إنك لرسول الله، والله يشهد إنهم لكاذبون، لكان يوهم أنّ قولهم هذا كذب، وليس المراد أن شهادتهم هذه كذب، بل المراد أنهم كاذبون في غير هذه الشهادة. وقال أكثر المفسّرين: إنه تكذيب لهم في هذه الشهادة، لأنهم أضمروا خلاف ما أظهروا، ولم يعتقدوا أنه رسول الله بقلوبهم، فسمّاهم كاذبين لذلك، فعلى هذا يكون ذلك تأكيداً.

فإن قيل: المنافقون ما برحوا على الكفر، فلِمَ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ [الآية ٣]؟

قلنا: معناه ذلك الكذب الذي حكم عليهم به، أو ذلك الإخبار عنهم بأنّهم ساء ما كانوا يعملون، بسبب أنهم آمنوا بألسنتهم ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ [الآية ٣] بقلوبهم ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [الآية ٣] كما قال تعالى في وصفهم: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤﴾ [البقرة] الثاني: أن المراد به أهل الرِّدّة منهم.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ﴾ [الآية ٤] ولم يقل هي العدو؟

قلنا: ﴿عَلَيۡهِمۡۚ﴾ هو ثاني مفعولي يحسبون تقديره: يحسبون كل صيحة واقعة عليهم أي: لجبنهم وهلعهم،

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

فالوقف على قوله تعالى ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وقوله سبحانه: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ ابتداء كلام. وقيل إن المعفول الثاني هو قوله تعالى ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ ولكن تقديره: يحسبون أهل كل صيحة عليهم هم العدو، الأول أظهر بدليل عدم نصب العدوّ.

المعاني المجازية في سورة «المنافقون»(*)

في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾ استعارة. والمراد بخزائن السماوات والأرض مواضع أرزاق العباد، من مَدَارِّ السحاب، ومخارج الأعشاب، وما يجري مجرى ذلك من الأرفاق.

وقال بعضهم: المراد بالخزائن، هُهنا، مقدورات الله سبحانه، لأنَّ فيها كلَّ ما يشاء إخراجه من مصالح العباد. ومنافع البلاد. وقد مضى الكلام على هذا المعنى فيما تقدّم.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

الفهـــرس

سورة «الذاريات»

المبحث الأول

أهداف سورة «الذاريات» ٣

معاني السورة ٣

آيات الله في الأرض والسماء ٤

قصة ابراهيم ٦

قصة لوط ٦

إشارات الى قصص الأنبياء ٧

المعنى الاجمالي للسورة ٩

المبحث الثاني

ترابط الآيات في سورة «الذاريات» ١١

تاريخ نزولها ووجه تسميتها ١١

الغرض منها وترتيبها ١١

إثبات الإنذار بالعذاب ١١

المبحث الثالث

أسرار ترتيب سورة «الذاريات» ١٣

المبحث الرابع

مكنونات سورة «الذاريات» ١٥

المبحث الخامس
لغة التنزيل في سورة «الذاريات» ١٧
المبحث السادس
المعاني اللغوية في سورة «الذاريات» ١٩
المبحث السابع
لكل سؤال جواب في سورة «الذاريات» ٢١
المبحث الثامن
المعاني المجازية في سورة «الذاريات» ٢٥

سورة «الطور»

المبحث الأول
أهداف سورة «الطور» ٢٩
القَسَم في صدر السورة ٢٩
نعيم الجنة ٣١
أدلة القدرة ٣١
المبحث الثاني
ترابط الآيات في سورة «الطور» ٣٣
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ٣٣
الغرض منها وترتيبها ٣٣
إثبات الإنذار بالعذاب ٣٣
المبحث الثالث
أسرار ترتيب سورة «الطور» ٣٥
المبحث الرابع
لغة التنزيل في سورة «الطور» ٣٧

المبحث الخامس
المعاني اللغوية في سورة «الطور» ٣٩
المبحث السادس
لكل سؤال جواب في سورة «الطور» ٤١
المبحث السابع
المعاني المجازية في سورة «الطور» ٤٣

سورة «النجم»

المبحث الأول
أهداف سورة «النجم» ٤٧
١ ـ تكريم الرسول ٤٧
٢ ـ أوهام المشركين ٤٨
٣ ـ الإعراض عن الملحدين ٤٨
٤ ـ الصغائر من الذنوب ٤٨
٥ ـ حقائق العقيدة ٤٩
المبحث الثاني
ترابط الآيات في سورة «النجم» ٥١
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ٥١
الغرض منها وترتيبها ٥١
نزول جبريل بالدعوة ٥٢
المبحث الثالث
أسرار ترتيب سورة «النجم» ٥٣
المبحث الرابع
مكنونات سورة «النجم» ٥٥

المبحث الخامس
لغة التنزيل في سورة «النجم» ٥٧
المبحث السادس
المعاني اللغوية في سورة «النجم» ٥٩
المبحث السابع
لكل سؤال جواب في سورة «النجم» ٦١
المبحث الثامن
المعاني المجازية في سورة «النجم» ٦٣

سورة «القمر»

المبحث الأول
أهداف سورة «القمر» ٦٧
انشقاق القمر ٦٧
سياق السورة وافكارها ٦٨
خمس حلقات من مصارع المكذبين ٦٨
١ ـ قوم نوح ٦٨
٢ ـ عاد قوم هود ٦٩
٣ ـ ثمود قوم صالح ٦٩
٤ ـ قوم لوط ٦٩
٥ ـ حكمة الخالق ٧٠
المبحث الثاني
ترابط الآيات في سورة «القمر» ٧١
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ٧١
الغرض منها وترتيبها ٧١
اقتراب ساعة العذاب ٧١

المبحث الثالث
أسرار ترتيب سورة «القمر» ٧٣
المبحث الرابع
مكنونات سورة «القمر» ٧٥
المبحث الخامس
لغة التنزيل في سورة «القمر» ٧٧
المبحث السادس
المعاني اللغوية في سورة «القمر» ٧٩
المبحث السابع
لكل سؤال جواب في سورة «القمر» ٨١
المبحث الثامن
المعاني المجازية في سورة «القمر» ٨٣

سورة «الرحمن»

المبحث الأول
أهداف سورة «الرحمن» ٨٧
المعنى الإجمالي للسورة ٨٨
تفسير النسفي للآية ٨٩
المبحث الثاني
ترابط الآيات في سورة «الرحمن» ٩١
تاريخ نزولها وتسميتها ٩١
الغرض منها وترتيبها ٩١
تَعْداد نِعَم الله على عباده ٩١

المبحث الثالث
أسرار ترتيب سورة «الرحمن» ٩٣
المبحث الرابع
مكنونات سورة «الرحمن» ٩٥
المبحث الخامس
لغة التنزيل في سورة «الرحمن» ٩٧
المبحث السادس
المعاني اللغوية في سورة «الرحمن» ٩٩
المبحث السابع
لكل سؤال جواب في سورة «الرحمن» ١٠١
المبحث الثامن
المعاني المجازية في سورة «الرحمن» ١٠٥

سورة «الواقعة»

المبحث الأول
أهداف سورة «الواقعة» ١١١
ثلاثة أصناف ١١١
أصحاب اليمين ١١١
أصحاب الشمال ١١٢
آيات القدرة الآلهية ١١٢
الزرع والماء والنار ١١٣
مواقع النجوم ١١٤
نهاية الحياة ١١٥
الأفكار العامة للسورة ١١٦

فضل السورة ١١٦

المبحث الثاني

ترابط الآيات في سورة «الواقعة» ١١٧

تاريخ نزولها ووجه تسميتها ١١٧

الغرض منها وترتيبها ١١٧

تفصيل الجزاء الأخروي ١١٧

المبحث الثالث

أسرار ترتيب سورة «الواقعة» ١١٩

المبحث الرابع

مكنونات سورة «الواقعة» ١٢١

المبحث الخامس

لغة التنزيل في سورة «الواقعة» ١٢٣

المبحث السادس

المعاني اللغوية في سورة «الواقعة» ١٢٥

المبحث السابع

لكل سؤال جواب في سورة «الواقعة» ١٢٧

المبحث الثامن

المعاني المجازية في سورة «الواقعة» ١٣١

سورة «الحديد»

المبحث الأول

أهداف سورة «الحديد» ١٣٥

مطلع السورة ١٣٥

أدلة التوحيد ١٣٦

تثبيت الايمان ١٣٦
مشاهد الآخرة ١٣٧
القلوب الخاشعة ١٣٨
المبحث الثاني
ترابط الآيات في سورة «الحديد» ١٤١
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ١٤١
الغرض منها وترتيبها ١٤١
الدعوة إلى الإيمان والإنفاق في سبيله ١٤١
المبحث الثالث
أسرار ترتيب سورة «الحديد» ١٤٥
المبحث الرابع
مكنونات سورة «الحديد» ١٤٧
المبحث الخامس
لغة التنزيل في سورة «الحديد» ١٤٩
المبحث السادس
المعاني اللغوية في سورة «الحديد» ١٥١
المبحث السابع
لكل سؤال جواب في سورة «الحديد» ١٥٣
المبحث الثامن
المعاني المجازية في سورة «الحديد» ١٥٧

سورة المجادلة»

المبحث الأول
أهداف سورة «المجادلة» ١٦١

تربية إلهية ١٦١
قصة المجادلة ١٦٢
أهداف السورة ١٦٣
المقصد الإجمالي للسورة ١٦٥
المبحث الثاني
ترابط الآيات في سورة «المجادلة» ١٦٧
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ١٦٧
الغرض منها وترتيبها ١٦٧
بيان حكم الظهار ١٦٨
المبحث الثالث
أسرار ترتيب سورة «المجادلة» ١٧١
المبحث الرابع
مكنونات سورة «المجادلة» ١٧٣
المبحث الخامس
لغة التنزيل في سورة «المجادلة» ١٧٥
المبحث السادس
المعاني اللغوية في سورة «المجادلة» ١٧٧
المبحث السابع
لكل سؤال جواب في سورة «المجادلة» ١٧٩
المبحث الثامن
المعاني المجازية في سورة «المجادلة» ١٨١

سورة «الحشر»

المبحث الأول
أهداف سورة «الحشر» ١٨٥

غزوة بني النضير ــــــــ ١٨٥
تسلسل أفكار السور ــــــــ ١٨٨
المقصد الإجمالي للسورة ــــــــ ١٨٩
النظام الاقتصادي في الاسلام ــــــــ ١٨٩
المبحث الثاني
ترابط الآيات في سورة «الحشر» ــــــــ ١٩٣
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ــــــــ ١٩٣
الغرض منها وترتيبها ــــــــ ١٩٣
الكلام على غزوة بني النضير ــــــــ ١٩٤
المبحث الثالث
أسرار ترتيب سورة «الحشر» ــــــــ ١٩٧
المبحث الرابع
مكنونات سورة «الحشر» ــــــــ ١٩٩
المبحث الخامس
لغة التنزيل في سورة «الحشر» ــــــــ ٢٠١
المبحث السادس
المعاني اللغوية في سورة «الحشر» ــــــــ ٢٠٣
المبحث السابع
لكل سؤال جواب في سورة «الحشر» ــــــــ ٢٠٥
المبحث الثامن
المعاني المجازية في سورة «الحشر» ــــــــ ٢٠٩

سورة «الممتحنة»

المبحث الأول
أهداف سورة «الممتحنة» ــــــــ ٢١٣

قصة نزول السورة ٢١٣
حاطب يفشي السر ٢١٤
فكرة السورة ٢١٥
تسلسل افكار السورة ٢١٦
مقصود السورة إجمالاً ٢١٨
المبحث الثاني
ترابط الآيات في سورة «الممتحنة» ٢١٩
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ٢١٩
الغرض منها وترتيبها ٢١٩
النهي عن موالاة المشركين ٢١٩
المبحث الثالث
أسرار ترتيب سورة «الممتحنة» ٢٢١
المبحث الرابع
مكنونات سورة «الممتحنة» ٢٢٣
المبحث الخامس
لغة التنزيل في سورة «الممتحنة» ٢٢٥
المبحث السادس
المعاني اللغوية في سورة «الممتحنة» ٢٢٧
المبحث السابع
لكل سؤال جواب في سورة «الممتحنة» ٢٢٩
المبحث الثامن
المعاني المجازية في سورة «الممتحنة» ٢٣١

سورة «الصف»

المبحث الأول

أهداف سورة «الصف» ٢٣٥

سبب نزول السورة ٢٣٦

هدفان للسورة ٢٣٦

لسورة الصف هدفان رئيسان: ٢٣٦

المقصد الاجمالي للسورة ٢٣٨

المبحث الثاني

ترابط الآيات في سورة «الصف» ٢٣٩

تاريخ نزولها ووجه تسميتها ٢٣٩

الغرض منها وترتيبها ٢٣٩

الحث على الجهاد ٢٣٩

المبحث الثالث

أسرار ترتيب سورة «الصف» ٢٤١

المبحث الرابع

لغة التنزيل في سورة «الصف» ٢٤٣

المبحث الخامس

المعاني اللغوية في سورة «الصف» ٢٤٥

المبحث السادس

لكل سؤال جواب في سورة «الصف» ٢٤٧

المبحث السابع

المعاني المجازية في سورة «الصف» ٢٤٩

سورة «الجمعة»

المبحث الأول

أهداف سورة «الجمعة» ٢٥٣

تسلسل أفكار السورة ٢٥٣

المبحث الثاني

ترابط الآيات في سورة «الجمعة» ٢٥٧

تاريخ نزولها ووجه تسميتها ٢٥٧

الغرض منها وترتيبها ٢٥٧

الحث على العمل بالعلم ٢٥٧

المبحث الثالث

أسرار ترتيب سورة «الجمعة» ٢٥٩

المبحث الرابع

مكنونات سورة «الجمعة» ٢٦١

المبحث الخامس

المعاني اللغوية في سورة «الجمعة» ٢٦٣

المبحث السادس

لكل سؤال جواب في سورة «الجمعة» ٢٦٥

المبحث السابع

المعاني المجازية في سورة «الجمعة» ٢٦٧

سورة «المنافقون»

المبحث الأول

أهداف سورة «المنافقون» ٢٧١

النفاق في المدينة ٢٧١
قصة نزول السورة ٢٧٢
مع السورة ٢٧٥
المعنى الاجمالي للسورة ٢٧٦
المبحث الثاني
ترابط الآيات في سورة «المنافقون» ٢٧٧
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ٢٧٧
الغرض منها وترتيبها ٢٧٧
مؤامرة المنافقين على المهاجرين ٢٧٧
المبحث الثالث
أسرار ترتيب سورة «المنافقون» ٢٧٩
المبحث الرابع
مكنونات سورة «المنافقون» ٢٨١
المبحث الخامس
المعاني اللغوية في سورة «المنافقون» ٢٨٣
المبحث السادس
لكل سؤال جواب في سورة «المنافقون» ٢٨٥
المبحث السابع
المعاني المجازية في سورة «المنافقون» ٢٨٧